القرية المهجورة
مجموعة قصصية

الطبعة الأولى
1441 هـ 2020 م

ديوان العرب
للنشر والتوزيع

ملحـوظـــــــــةٌ: حقوق الطبع جميعها محفوظة للمؤلف
عنـــوان الكتاب: القرية المهجورة
اســـم المـؤلف: محمد الورداشي
رقـم الإيـــــداع: 8621 / 2020
الترقيـــم الدولي: 2 - 43 - 6792 - 977 - 978
تصميـــم الغلاف: محمد وجيه
تدقيـــق لغـــوي: هبة ماردين
التنسيق الداخلي: محمد وجيه
البريد الإلكتروني: mohamedhamdy217217@gmail.com

الطبعة الأولى
1441 هـ 2020 م

دار ديوان العرب للنشر والتوزيع
مصر - بورسعيد
المديـــــر العام: فادية محمد هندومة
جوال: 00201211132879
E-mail: mohamedhamdy217217@gmail.com

حقوق الطبع والنشر لهذا المصنف محفوظة للمؤلف، ولا يجوز بأي صورة إعادة النشر الكلي أو الجزئي، أو نسخه أو تصويره أو ترجمته أو الاقتباس منه، أو تحويله رقمياً وإتاحته عبر شبكة الإنترنت، إلا بإذن كتابي مسبق من المؤلف أو الناشر.

القرية المهجورة

مجموعة قصصية

محمد الورداشي

الإهداء

إلَى ِتلكَ الأَرْضِ البَعِيدَةِ

التّي تَجَرّعَتْ كُؤُوسَ الآلاَمِ

وَمَا تَزَالُ..

إلَى الأُمّ الحَنُونَةِ التّي عَلَّمَتْنِي

حُبَّ الإنْسَانِ حُبًّا كَوْنِيًّا..

إلى كلِّ الذينَ يَتّخذونَ الحِوَارَ الّثقافِيَّ

سِراجًا لهمْ في هذا العصرِ الذي

مُلِئ بالحروبِ الطاحنةِ..

إلى كلِّ المنكوبينَ في هذه الأرض

السّعيدةِ بآلامِها وآهاتِها..

إلى روح الشهيد عبد الله الحجيلي..

إلى هؤلاء جميعا أهدي هذا الكتاب.

مقدمة

إن الكتابة:

فعل ذاتي ينبع من داخل كل ذي لسان معين، سواء أكان متمكنا منه، كل التمكن، أم كان قليل التمكن منه. الكتابة فعل ينقلنا من حالة التشظي والدمار إلى حالة من الوجود الفعلي الذي يجعلنا أمام ذواتنا وواقعنا؛ إنها لملمةٌ لأشلائنا في دروب من الحيرة والتشتت؛ إذ بوساطتها، نستطيع البوح للقلم بكل جرأة، كما نستطيع تضميد جروحنا وآهاتنا وآلامنا. إنها بعث ونشور، وأفق نشرف من خلاله على حياة أخرى، عالم آخر. بالكتابة نتحدى واقعنا بكل محاسنه ومساوئه، بها نفضّ بكارةَ كلّ القيم التي تدخل تحت لواء المحظور، بها نواسي كلّ الجرحى الذين احتفوا بمنون مفاجئ، أولئك الذين تذوقوا سكرة الموت في ليالٍ دامسةٍ. حيث لا يسمعون غيرَ ذبذبات القنابل ترهف أسماعهم، ولا يرون سوى شرارات محمرّة تمر أمام مقاليهم، ولا يحسون غير آلام تهز قلوبهم هزا؛ إنهم أولئك الذين يحتفون بالموت في كلّ وقت وحين، ويتجرعون كؤوسَهم مترعةً بالدماء... إنهم المنكوبون الذين يُحمَلون إلى لحودهم بلا كفن ولا نعش، بعدما فقدوا وجودهم، وكرامتهم، وإنسانيتهم، وديارهم، وأموالهم، وأبناءهم، وذويهم. وبكلمة عزاء واحدة أقول: إنهم المعذبون في الأرض

اليباب حيث يتشوقون إلى تلكم الحياة السرمدية، والتي سيسقون فيها من كأس كان مزاجها زنجبيلا بعدما تجرعوا الكؤوس الدامية، وأكلوا فتاتَ الخبزِ المنغمس في أنهر الدم المتدفقة تدفقا.

الكتابة قفز على الماضي وحنينه، وتجاوز للحاضر وآهاته، واستشراف للغد وغيبياته؛ إنها الترياق الذي نداعب بوساطته أوجاع الحياة، ونرمي من خلاله، ما يملأ أفئدتنا إلى الآخرين؛ أولئك الذين أثخنوا جراحا، حتى يواسونا في موتانا، ونواسيهم في موتاهم، حتى يتجرعوا من كأسنا ونتجرعَ من كأسهم... إننا المعذبون في الحرب والدمار، إننا المفقودون في الوجود، والإنسان، والزمان، والمكان، لنحمل عبء أقلامنا بحثا عن ملاذ في عالم الكينونة، تشوقا لتلكم الحياة الفردوسية التي تتوق لها القلوب توقا، وتحن لها حنين المتلهف المحارب إلى وطنه حيث حبيبته تنتظر، ووالدته تحتضر، وأبناؤه يقارعون السهدَ في ليالي شتاء باردة.

كلما حملت قلمي قصد البوح بما يختلج نفسي، والرمي به بعيدا عني حيث الخلاءُ والخراب، أخشى الكتابةَ من حيث هي عبء ثقيل، وأرمي القلمَ من يديّ المرتعشتين كأني أرمي بعبء أثقل كاهلي، وأفقدني كل قواي الجسدية والعقلية والروحية، حتى أغدو أرضا يبابا لا تحفل بغريب مات ظمأ، ولا بفقير سقط ضحية جوع سنين عجاف، ولا بعَالِمٍ أفنى زهرةَ عمرِه في تقليب

الصفحات، ولا بعاشق نخر الحبّ قلبه، ولا بمجنون سلبه الواقعُ القاسيُّ عقله، ولا بطفل صغير أفقدته الهيجاءُ والديه، ولا بثكلى الهَجْر التي اغتصبتِ الحربُ بعلها، ولا بعجوز التهمت الحياةُ وصروفُها جسده، ولا بذلك الذي تغرب عن دينه ووطنه، ولا بذاك المجرم الذي سلب أموالا، وقتّل أطفالا، ولا بذا وذاك. والأرض التي تكون هذه حالها مع أبنائها وغيرهم، لا تعدو أن تكون أما ضالةً عاقة، لا إنسانية لها، ولا دينا تسامح به الغرباء، ولا قلبا يسع الآخرين على اختلاف أديانهم، وأعراقهم، وبلدانهم، وألوانهم، وأفكارهم، ومعتقداتهم.

الأرض التي هذه حالها، لا تعرف التعايش كمبدإ، ولا الاختلاف في العقيدة والرأي كمنطلق نحو اعتناق الإنسان. إنها عاقة لأنها لا تعرف بأن ثمة حقيقةً تحمل أوجهًا عديدةً، ومظاهرَ وتجلياتٍ متعددةً، ولا يملكها العالم ولا الجاهل، ولا المؤمن والملحد، ولا الإسلامي واليهودي والمسيحي... الحقيقة فردوس مفقود، ولكل ذي عقل الحقُّ في ادعائه، والسعي ورائه، وفي النهاية نعود إلى المعين الأصيل الصفي الذي نمتح منه جميعا على اختلاف معتقداتنا ومذاهبنا، وما من سبيل يقودنا إليه غير الحب الإنساني الكوني.

الحياةُ ليستْ قصةً قصيرةً لنكتبَها في صفحاتٍ محدودة، وليس بمقدورنا ترجمتُها إلى كلماتٍ معدودة. إنها قصةٌ لا تقبل الاختزالَ المُمِلَّ، فهي عوالمُ وأمكنةٌ وأزمنةٌ متعددة.

محمد الورداشي

2019/03/12

****

دموعُ السماءِ

كانت الشمس تحمل أشلاءها ببطء شديد، مثقلةً بهموم النهار الكثيرة، والقمر يطل على القرية ويختفي، والطيور تغادر الوادي الذي جفت ينابيعه. لقد كان المساء ثقيلا على القلوب؛ لأن فيه تأتي الهماهم والمعاناة، وتكثر الحشراتُ المزعجةُ التي تلعق دم القلب، وتختلط بالهواء الملوث برائحة الموتى الذين حصدهمُ العطش في القرية، حيث كانوا يموتون الواحد تلو الآخر في أيام متتالية. في كل يوم لدينا مأتم، والنساء ينتحبن ويصعرن خدودهن، والعويل يملأ القرية من كل جوانبها، والناعي يأتي بالنبإ العظيم ويهتف بالموت باكيا ونحن نؤدي صلاة من الصلوات الخمس. لقد بلغت أمواتنا المئات، ونحن لم نكن لننقذهم؛ لأن الموت يأتي على الأخضر واليابس؛ ويحصد الأرواح حصادا. ولكنه لا يأتي فجأة، بل إنه ضيفنا الذي استقر به المقام في قريتنا فأقام. في كل وقت وحين، ينادي بالمزيد من الأرواح. أما نحن، فإننا ننادي السماءَ أن تجود علينا بقطرات من المطر، نسقي بها أجسادَنا المقفرة، ونبلل بها شفاهنا.

يا الله، إن النخيل يموت واقفا شامخا لا يرضى السقوطَ رُغم سكرة الموت، والتي تجعل قلبه حطبا لكل سكان القرية. والشيوخ يموتون عطشا، والصغار يصرخون ملء الحناجر، والجدات يواسين القلوب العطشى، كلنا نهتف: العطش.

أثناء هذه اللحظات، أتى الشيخ عبد القادر المصون، وهو يتكئ على عكازه الذي يتكون من شجر العرعار، ولحيتُه بيضاءُ تنم عن الوقار الذي يحظى

به عندنا، نحن الصغار والكبار. فمنذ أن فتحنا أعيننا على القرية، وآباؤنا يصبون على رؤوسنا المواعظ والإرشادات؛ كأن يقولوا لنا: احترموا الكبارَ كلَّهم، ولا تتحدثوا في حضرتهم وهم يرددون إذا حضر الماء يرفع التيمم، وأن الحديث في حضرة الشيوخ يعد من قلة الآداب والحلم، لهذا كان الشيخ يثق في نفسه كل الثقة، إلا أن انعدام الماء في القرية لأيام عديدة، جعل منه حكيما لأجل الحسم في هذا الوباء الذي انتشر فيها، كما تنتشر النار في الهشيم. وبعد أنِ استقر به المقامُ وسط الساحة التي تعد ساحةَ الأغورة عندنا، فيها نبث في أمورنا، ونناقش مشاكلنا الصغيرة والكبيرة، شرع يقول ولعابُه يتطايرُ كشرارة النار:

- " لقد اندثر الماء في القرية منذ سنوات، وظللنا خلالها نتوسل إلى المسئولين في البلاد. ولكن هذه المرةَ تُنذر عن الإبادة الجماعية، كلنا سنموت، ويا للأسف، سنموت بسبب العطش. آه، ليتنا متنا في حرب ضارية دخلناها دفاعا عن وطنيتنا من غارات المستعمر المستبد.

أما الآن، ارفعوا رؤوسكم نحو السماء، لأن هنالك ربا رحيما لن يتخلى عن عباده الذين يموتون عطشا، وهو الكفيل بأن يرزقنا قطرات المطر التي ستعيد إلينا الحياة من جديد.

لقد تحملنا الجوع سنواتٍ عجافا. وبصبرنا غير المَمْنون، تمكنا من التعايش مع الجوع الذي كان ينذر بالموت، فكنا نتشارك فتات الخبز بيننا، كما أننا غدونا جسدا واحدا، نجتمع على خبز واحد، يأكل منه الصغار ثم النساء، وما تبقى يأكله الرجال. أما الشباب، فإنهم كانوا يسيحون في الأرض نهارا. حتى الشمس استأسدت على أجسادنا النحيفة التي تذوب بفعل شدة القيظ، والأرض استنسرت وآثرت لنفسها الخراب. لقد كنا نزرع

نصف ما نأكل في السنة، أملا في أن نحصد ما ندفع به هجمات الجوع والوباء على قريتنا، فإذا بنا لا نحصد شيئا غير اليابسة واليابسة.

لكننا الآن، لسنا في حالة خيار لنتحمل أعباء العطش، فمن أين سنأتي بالماء، والآبار قد جفت ينابيعها، والأرض بلعت ماءها، والسماء لم تعد تمطر سوى الغيوم المكدرة الحزينة.

هلموا إلى المسجد نصلي جميعا صلاةَ الاستسقاء، ونتوسل تضرعا إلى الله تعالى، فإن فيه خيرا واستجابةً لدعوة من تضرع إليه بالدعاء.

إن عيوننا أصبحت تبكي دون دموع، وشفاهَنا تتحرك دون أن نسمع كلاما، لقد اقتربت ساعتنا يا جماعة، فمن أجل الصبيان والرضع ادعوا وادعوا لعل الله يستجيب لنا ".

هكذا ظل الشيخ يحدثنا برهة من الزمن، ويذكّرنا بالأيام العجاف التي مرت بها قريتنا المهجورة. فكنا حينها صغارا، لا نعرف شيئا عن الويلات. بل كنا نأكل ما تطبخه الأمهات، ثم ننام الليلَ كلَّه ونحن نتقلب في مضاجعنا الهشة، لأن مصيبتنا كانت مصيبتين: حيث كنا نصارع البرد القارس في ليالي الشتاء، ونعاني الجوع والمرض اللذين ينذران عن الموت الجماعي. لم نكنْ لنعيَ هذه السنوات لولا حديثُ الجدات الذي ندفع به صفعةَ البرد ورصاصةَ الجوع.

للمرة الأولى، أرى الدمع يجري كالسهول من عيون الشيوخ في القرية، لقد كانوا جميعا ينتحبون وهم يصطفُّون في المسجد بغية الصلاة. رغم صغر سني، فإنني اخترت الدخول بين الصفوف، وبقيت أحاول البكاء كثيرا دون أن تذرف عيني دمعة، فارتأيت أن آخذ لعابي من فمي، ثم

أضعَه على خدي تظاهرا بالبكاء. لكن هذا الوضع لم يدم طويلا حتى انهمرتِ الدموعُ فبكيت بكاءً مريرا. كان مصدر دموعي الوحيد هو صميم قلبي؛ لأني بدأت أشعر بأن ثمة خطرا يهدد وجودنا وحياتنا.

لا يجتمع الشيوخ هكذا إلا للنظر في المشاكل الكبرى التي تؤرق الجميع في نومه. لهذا أيقنت أنني مطالب بالبكاء على وجودي بين ظهرانيهم. لقد كنت، كأيها الناس في كل زمان ومكان، أحب الحياة حبا جما، ولا أطيق اندثارَ الماءِ في الوادي الذي يعد متنفسنا الوحيد، حيث نذهب للسباحة فيه، وقضاء اليوم كله هنالك، دون أن نخشى لومة لائم ولا أن نشعر بالجوع. أما الآن، فإنني أرى الطيورَ تهجر أعشاشها، والأعشابَ المخضرةَ صارت هشيما تذروه الرياح. لم نعد نسمع زقزقة العصافير في الوادي، ولا نترنم بجداول الماء العذب وهي تطرب أسماعنا، وإنما غدا المكان مخيفا ولونُه ينم عن الجفاف القاتم.

اعتكفنا في المسجد لحظاتٍ طويلةً. فكم رتَّلنا من الدعاء همسا وجهرا، وكم ذرفنا من الدموع في سبيل قطرة المطر؛ لأننا نحب الحياة، كما أن على هذه الأرض ما يستحق الحياة.

لقد أنهينا الصلاة في مأتم مهيب، وعدنا إلى الساحة مشكلين حلقةً دائرية، لكي نتداول سبل الفرار من هذا المأزق المميت. هكذا، دعونا الله دعاءً كثيرا. وفي انتظار الاستجابة، كان من المفروض أن نقوم بحركة معينة، فلا خيارَ لنا أبدا؛ فإما أن نتحرك باحثين عن سبل الخلاص، وإما أن نحفرَ قبورَنا التي ستترع بأجسادنا العطشى.

يقول الشيخ:

- " يا جماعة، إننا صلينا صلاة الاستسقاء، وتوسلنا إلى رب العباد والبلاد الذي بعث الحياة في القرية مرات عديدة، فانظروا الآن ماذا تأمرون؟ ".

تقدم الشيخُ علي، مقدمُ القريةِ الذي يعدّ حلَقةَ وصلٍ بين السلطات العليا وأهل القبيلة، يقول:

- " يا جماعة، إن كلام الشيخ عبد القادر كبيرٌ في نفوسنا، ولا يمكن أن أخالفه في ما ذهب إليه. ولكنني أرى أن التحرك المناسب، هو اختيار أحد أبنائنا، حتى يكتب لنا رسالةً نرسلها إلى القائد المعطي، لعله ينظر في قضيتنا ويحن قلبه علينا. أنتم تعرفون ما يحتاجه القائد ليقبل بالرسالة. لهذا الغرض، يجب علينا أن نقيم حفلا مهيبا يحضره القائدُ وأعوانُه، ونكرمَهم بكل ما لذّ وطاب من اللحم المشوي، ثم نهبَه جزءا من أرض الجموع لكي يعود إلى قصره ومزاجُه مطمئنٌ، فيتولى أمرَنا قبل أن نُهلكَ جميعا، ونتركَ هذه القريةَ أرضا يبابا ".

استغرب الجميع لما سمعوا كلامَ المقدم، وكنت أنا من أول المستغربين. كيف يدعونا إلى إقام حفل مهيب، ونحن نتضور عطشا، والبهائم بدأت تموت يوما تلو الآخر؟ ما المنطق الذي يفكر به المقدمُ علي، ونحن نطالب بحق طبيعي: الحق في الحياة؟ ألا يخجل هذا القائدُ وأمثالهُ منِ امتصاص دماء الفقراء الذين أُستُضعفوا في الأرض؟

ليس كلام المقدم بجديد على الأهالي. فهم قد ألفوا الأمرَ قبل سنوات؛ لأنهم عاشروا قوادا كثيرين، بداية من القائد حمو حتى المعطي، ويعرفون كم يقدمون من قوت أيامهم لتحمُّل عبء هذا الحفل في كل زمان.

إن القواد قد ألفوا أكلَ لحومِ الفقراء، وامتصاصَ دمائِهم بلا رأفة منهم، وهذا شيءٌ موجودٌ في الطبيعة البشرية في كل الأزمنة والأمكنة، والناسُ همُ الناسُ في كل وقت وحين.

طأطأ الجميعُ رؤوسَهم، مما يدل على الاستجابة والخضوع للكلام الذي يُصَبُّ فوق رؤوسهم، وهم كالموتى لا يقدرون على الحراك. وفي هذه الأجواء الكئيبة، نطق الشيخ إبراهيم الذي لزم الصمتَ منذ أنِ اجتمع الجميع، ثم قال:

- " إننا في محنة عسيرة، ولا نملك ما نطعمه للقائد وأعوانه. نحن مقبلون على الموت والهلاك، ولسنا مستعدين للانتظار لمدة طويلة، لهذا أقترح أن نجتمعَ نحن سكان القرية، كبارها وصغارها، رجالها ونساؤها وأطفالها، ونذهبَ إلى القائد في قريته، ونطلبَ منه المساعدة دون أن نتقدم إليه بالهدايا. لن نعود حتى نأخذ بناصية الأمر، ثم نرى بأم أعيننا القائد، وننصت لكلامه لعل قلوبنا تطمئن ".

لم يكن في الجمع شخصٌ ليُعارضَ كلام هذا الشيخ الوقور، لأنه عُرف في شبابه، بفطنة عقله، وحنكته وحكمته في الوقائع العظيمة، إلا أن الأمور لم تجر على هذا المنوال. فبين الشيخ إبراهيم والمقدم علاقةٌ متأزمةٌ منذ سنتين، لما طلب منه الشيخ أن يطلب من القائد المساعدةَ قصد بناء مسجد صغير في القرية، فرفض المقدم هذا الطلب رفضا؛ ما أثار حفيظة الشيخ، فاتهمه علانا بتواطئه مع القائد، وأنه يساعده على أكل أموال القرى المغلوبة.

لقد أثار كلام الشيخ غضبا شديدا في نفس المقدم. كان الشيخ إبراهيم يعلم

أن الطريق التي تؤدي إلى نتيجة مجدية، هي الثورة على القائد وأعوانه، وفضح أمره أمام العباد في البلاد. وهذا ما لا يطمئن له المقدم، لأنه لم يكن ليفكر في موجة الغضب التي ستصدر عن القائد، ونقمته على سكان القرية، بل كان يخشى على مكانه في السلطة. فمجرد تحرك بسيط للسكان سيؤدي إلى إنزاله من عليائه، وسحب صفة السلطة منه إلى الأبد.

إنها لحظة الحسم في أمر المصالح الشخصية الخاصة، ويجب على المقدم أن يتدخل بسرعة ليوقف هذا السيل العارم من الانجراف نحو القائد. لذلك كان لزاما عليه اقتراحُ حل سلمي يحول دون الثورة. يجب عليه أن يصرخ في وجه الشيخ، أو على الأقل، يلجأ إلى خطابه المعتاد الذي يدعو إلى الصبر على ظلم الظالمين، وجور الجائرين إلى أن يرث الله أرضه ومن عليها. فلم يكن أمامه إلا القول:

- " أنا لا أوافق الشيخ في ما ذهب إليه قط؛ لأنه يدعونا إلى الثورة والنقمة على سعادة القائد، وهذا كلام ليس في محله. فماذا لو استرق الهواءُ السمعَ وأخذ به إلى القائد، أو أرسل لنا عينا ترقبنا ليل نهار؟

سيكون المآل كارثة كبرى لا محالة، أو حربا ضاريةً بلا هوادة، ونحن الآن في حال ضعف وهون. لقد تحملنا الجوع سنواتٍ طوالا، ثم مرت علينا الأوبئة تحصد الأرض وتعيث فيها الفساد، فلم نمت جميعنا، بل مات بعض أطفالنا وشيوخنا، رحمة الله عليهم؛ لأنهم لم يستطيعوا مقاومة الوباء. أما الآن فإن العطش وباءٌ هالك، ولا يمكننا الثورة على عباد الله بسبب أمر يخص الله وحده. فلئن نحن قمنا بما أملاه علينا الشيخ المتهور، فإننا سنلقي بأنفسنا إلى التهلكة، وهذه الثورة ليس بوسعنا القيام بها أبدا، وأفضلُ أن أموت ببلاء من الله على أن أموتَ على يد القائد وأعوانه.

يا جماعة، إنني اقترحت عليكم حلا سالما لا يضرنا شيئا: قوموا جميعا إلى مرابض بهائمكم، وليختر كلٌّ منكم أجودَ بهيمة لديه، لا شيةَ فيها ولا شائبة، فيحضرها إلى الساحة، لنذبح الذبائحَ ونطعم الطعامَ لسعادة القائد، وآنئذ سترون طيبةَ قلبه ورحمتَهُ بنا ".

ما مر جمعٌ لأكابر القرية إلا وتخلله كلام من القرآن، كثير أو قليل. لماذا يقتبس هذا الخائن من القرآن كلاما ليطفئ به النارَ المشتعلةَ في نفوسنا؟ لمَ يخشى الثورةَ على القائد؟

إننا نموت عطشا يوما بعد يوم، وهذه القرية الظالم مقدمُها لم تعد صالحة للعيش ولو ليوم واحد؛ فالنفوس تنفر منها بين الفينة والأخرى، والكل بدأ يتحدث عن الهجرة إلى المدن الكبرى، هروبا من الموت الجماعي.

إن من واجبنا نحن الصغار أن نثور على هذا القانون الذي يحكم جمع المشايخ. يجب أن نكسر أغلال الصمت، ونحارب الخوف والخنوع. فنحن، بصمتنا هذا، ميتون منذ زمان انقضى، فاللهم الموت على العطش ولا موت الذل والمهانة. ينبغي أن نثور على هذا العرف الذي علمنا ثقافةَ الخضوعِ والخنوع لكلّ ما يصب فوق رؤوسنا من كلام يطلق على عواهنه، ولا نجني منه خيرا غيرَ الموت الرتيب. لكل هذا، يجب أن أتحدث هنا والآن، حتى وإن وسموني بقليل الأدب والحلم، فإنني لن أتوارى:

- " يا شيوخُ القرية المحترمون، أظن أنكم أطلتم في الحديث طويلا، ولم تخلصوا لرأي يشفي جروحنا العميقة، ويروي غليلنا الكبير. إنكم تطلبون من الجميع بأن يلزم الصمت، وينتظرَ الذي يأتي ولا يأتي. فالقائد منهمك في قرع الطبول وهز البطون. لذلك لن نطعمه طعاما، ولن نذبح بهيمة

واحدة؛ لأن لحومها محرمة عليه وعلى أمثاله من القواد، لا يمكننا ذبح بهيمة والموت يسري داخلها لأيام. وأعتقد أن الشيخ الوقور، قد نطق بعد إطراق طويل، وقال كلاما حكيما لا مناص من العمل به.

فلنقم جميعا نحو قرية "منصورة" حيث يسكن القائد، ثم نصرخ هنالك بكل ما بقي من قوانا الخائرة، ونحارب بمفاصلنا الرخوة. إننا ميتون منذ أن أجبرنا أنفسنا على طاعة هذا المخلوق في معصية الخالق. والله لن يرحمنا ما دمنا نسكت على المنكر والبغي في أراضينا المباركة، فالقائد واحد من مترفينا الذين نشروا في الأرض الفساد، وخربوا الحرث والنسل.

أيها الشيوخ، هلموا إلى القائد قبل أن يُغمَضَ لنا جفنٌ، ويبدأ العطشُ في حصاد أرواحنا وبهائمنا. انهضوا فإننا نمنا زمنا طويلا، وإن تحقيق مبتغانا لن يتم دون ثورة، وهذه الأخيرة لن تمر بسلام، وإنما تتطلب منا تضحيةً كبيرة، ومن مات على قطرة ماء أو سُجن، فإنه شهيد من الشهداء الأبرار".

لم ينبس أحدٌ منَ الأكابر ببنت شفة، إلا أن وجوهَهم اصفرّت اصفرارا، وشفاهَهم نضبت وجفت، وألسنتَهم تجمدت داخل ثغورهم، فتراهم يبتلعون ريقهم، ويرتعشون ارتعاشَ الطائر الذي أحس دبيبَ الموت يسري في ثنايا جسده.

لقد علم الجميع أن الوقت ليس وقتَ صمتٍ وخنوع، وإنما هو حسم بين الحياة والموت، ولأجل الحياة فقط سنحارب حتى أخر نفس.

ظل الشيخ الوقور، إبراهيم، يبتسم لي، أثناء حديثي، ولم يكن لأحد أن يوقفني، ثم يقول إنك قليل أدب. بل إنهم علموا أن الصغار قد وعوا صعابَ

الحياة ومهازلَها، وأحسوا وقْعَ السهام في قلوبهم، ثم أجمع الجمع على الذهاب لقصر القائد المعطي، سوى المقدم علي الذي تبرأ منا براءةَ الذئبِ من دم يوسف.

إن الانتظار موتٌ رتيب، يأتي حثيثا نحو ضحيته، ويجتثها في صمت دون أن يترك أثرا نرصده لننتشلها من الرحيل للأبد، والعطش وباء وموت جماعي. لهذا لم ننتظر طويلا، ولم نأخذ وقتا للتفكير في هذه الخطوة الجبارة من جديد. بل إننا حملنا أنفسنا ونحن نفر من الموت إلى الموت؛ من الموت الرتيب نحو الموت السريع.

كانت وجهتَنا قريةُ "منصورة" حيث قصرُ القائد، والتي تبعد عن قريتنا بمسافة ليست يسيرة. ليس لنا وسائلُ نستخدمها للسفر سوى الدواب من الخيل والحمير التي امتطينا ظهورها، بل عظامها الهزيلة من شدة العطش، لا ندري إن أريد بنا خير أو شر، لكننا مستعدون للموت المفاجئ في أي لحظة.

لم يكنِ السفرُ سهلا على الشيوخ الذين شارفوا على الستين من عمرهم. فلا خيار لنا غير فتح أبواب الموت على مصراعيها؛ لكنّ بين الحياة والموت هنالك مهلةً نفكر فيها في القِبلة التي سنوليها وجوهنا. كان لزاما أن يمتطي الشيوخ الدواب، ونحن الصغار سنمشي على أقدامنا، ونتحمل وعثاء السفر نحو الموت السريع.

استمر السفر ليلة كاملة، ولم نصل قلعة الموت حتى الصباح. حيث الطيور تحلق فوق رؤوسنا، وتصدر أصواتا رهيبة ومخيفة؛ كأنها رسلٌ من السماء تنذرنا بالموت القريب. لقد اعتدنا منذ صغرنا، أن ننتبه لحركات

الطيور، وننصت لأصواتها المتغيرة؛ لأنها بمثابة رسول فر من عوالم الغيب البعيدة، وأتى إلينا بنبإ عظيم، إنها أتت من سبإ لتخبرنا بما ينتظرنا.

وقفنا أمام باب القصر الكبير، والحرس يطوقونه من كل ناحية، والجميع حيارى من أمرهم؛ يكتفون بالنظر إلى بعضهمُ البعض. هل كان الشيوخ يودعوننا ونودعهم أم أن الأمر نابعٌ من الخوف من بطش القائد المعطي؟

انتظرنا طويلا، لعل هذا القائدَ المتكاسلَ يستيقظ من سباته العميق، لكنه لم يخرج علينا، بل أرسل أحد أعوانه الكبار الذي يشرف على أمور القصر. يا له من مشهد رهيب، إن هذا الشخص مجرم لا مناص من ذلك، وهذا باد على ملامح وجهه الذي يحتوي ثنايا، كالتي وجدناها في طريقنا، فظل ينظر إلينا نظراتٍ شزراءَ لا ابتسام فيها، ولا رحمة ورأفة بالعباد الضعفاء، ثم هتف يقول:

- " ماذا تريدون؟ لم أتيتم يا جماعة؟ هل أحسستم بالجوع ثانية؟

إن لنا خدما يقتاتون على فضلات موائد القائد، وهم مطمئنون بهذا العيش الرغد. وإذا كنتم كلابا تودون حراسة القصر، فإن القائد لم يعد يريد الكلاب في حضرته ".

كان هذا الخطاب ثقيلا على أذننا، لأنه تمكن من زرع الرعب والفزع في نفوسنا. ثم خرت قوانا قبل أن نرى القائد؛ لأننا نعرف أن المستبد لا يكون مستبدا إلا بوجود هؤلاء الجلاوزة الذين يحيطون به، وينفذون أوامره الجائرة في حق عباد الله المنكوبين. تقدم الشيخ عبد القادر وشفتاه ترتعشان كأنه في ليل شتاء ينتظر الوحي في الجبل، يقول:

- " لا يا سيدي، نحن لم نأت لنقتات من فضلات الموائد، وإنما أصبنا منذ أيام طويلة بالجفاف الذي يخرب أرضنا ونسلنا. والحال هذه، جئنا نتوسل إلى القائد المعطي، لعله يساعدنا على محنتنا؛ إننا نعيش بين الموت والحياة، فعسى أن يستجيب لطلبنا ".

ردّ العون وعيناه متقدتان نارا:

- " إن لك جرأةً تنم عن قلة الحياء. كيف تأتون أيها الشيوخ المتجعدون إلى القصر؟ لن يستقبلكم القائد، لأنه علم وصولكم، ولولا رحمةُ قلبه لانتهى أمركم حالما وصلتم. عودوا إلى قريتكمُ المهجورة، فإن الله قد أصابكم بوبال أمركم، وما تسلط عليكم من عطش وجفاف ليس إلا نتيجة فسادكم في الأرض ".

اشتدّ لهيب الكلام، وصار العون يسلكنا بلسان حاد، ويضيف إلى محنتنا محنةَ كلامه هذا. فلم يكن من بد أمامنا إلا الصمود في وجه هذا المتغطرس الذي يصول ويجول في أعراضنا، وينتهك حرماتنا ويدوس كرامتنا، ثم يتلذذ بموتنا الرتيب. فحاول الجميع اقتحام البوابة غصبا عن الحرس، لكننا لم نستطع الدخول؛ لأن العون سلط علينا كلابَهُ المفترسةَ التي تنهش أجسادنا نهشا، وترتوي من دمائنا التي بدأت تسيل كسَيْلِ العَرِم.

لقد كنا نقارع الموتَ الرتيب، فغدونا نصارع الموتَ السريع، وهذا دليلٌ على تعلقنا بالحياة ومحاولة الهروب من بطش الموت. فنحن، وكباقي الكائنات الحية، نهوى الحياة ونصارع لأجل قانون البقاء والحفاظ على النوع والنسل. إن موتنا انتصار؛ لأننا ميتون لا محالة، لذلك، فلنمت على العطش، وحفاظا على حياة أولئك المنكوبين المحرومين الذين تركناهم في القرية، يصارعون الموت فرادى.

سقط الشيخ عبد القادر أرضا دون أن يصدر حراكا، فعلمت، وعلى حين غرة، أنه غادر الحياة ولن يعود أبدا. لم يكن بمقدور المسكين، والذي بلغ الستين من عمره، أن يصمد ويتجلد طويلا أمام ضربات الجلاوزة قساة القلب، ومنعدمي الضمير؛ لأن هؤلاء لا يعاملون الإنسان، باعتباره إنسانا، بل إنهم يعاملونه أقبح المعاملات، ويقسون عليه قسوةَ الملك الظالم على أصحاب الأخدود. ليس الشيخ هو الوحيد الذي مات على يد هؤلاء الظلام، وإنما كان هذا مصيرَ باقي الشيوخ. أما نحن الصغار، فإننا وجدنا أنفسنا، وفي لمح البصر أو هو أقرب، قابعين في بلاط السجن، وراء القضبان الحديدية، نصول ونجول بين المطرقة والسندان، الموت والحياة.

إن على هذه الأرض حقا، من يستأهلون الحياة رغم قسوتها وكثرة آلامها وآهاتها. وقد كان الأهالي يستحقون الحياة، لكن الموت لا يردعه بشر مهما بلغ من القوة. ففي هذا المشهد الكئيب، غادر الشيوخ واحدا تلو الآخر، فأغمضوا أعينهم على الجري وراء قطرات الماء؛ لأن أجسادهم قد تعبت من عبء الحياة، ولعل الموت يكون أهون عليهم من العطش الرتيب، ولعله يكون راحة لأجسادهم التي أنهكتها حرب الليالي. هكذا، ظلتِ الدماء تخرج من أفواههم، ما جعل الجلاوزة يأبون غسل هذه الأجساد النحيفة التي أتعبها السفر دون أن يقر لها قرار. لكن الانتظار، هذه المرة، قد ملّ وكل، وانغمرتِ الدموعُ الغزيرةُ من عيون السماء، تغسل هذه الأجساد وتطفو بها فوق الزبد الذاهب. ثم اهتزت الأرض القاحلة وربت؛ لأن أمر الله أتى أخيرا، ولكننا استعجلنا الموت لأننا نكره الانتظار. إن موتنا انتصار، وإن سجننا بهجةٌ وانشراحٌ في حضور قطرات المطر. "إن على هذه البسيطة من يستحق الموت والحياة ".

الثائر عمر

كان عمر شابا حسن الهيئة والمنظر، جميل السريرة؛ لا يعرف قلبه حقدا ولا كرها، ولد ونشأ في قريته النائية حيث الرمال الذهبية التي تزدان جمالا، كلما عانقت قيظ الشمس الحارة. فترى القرية من بعيد كأنها معترك فسيح للكائنات الحية. فالناس هناك منكفئون على أنفسهم، متماسكون فيما بينهم، لهم عاداتٌ وتقاليدُ متعددةٌ ومتباينة. في هذه الأجواء، كان عمر يعيش آمنا مطمئنا كأيها الناس حتى عرفت حياته تغيرا وتقلبا. حيث صار الشخص الغريب الذي اعتزل قومه، فظل قابعا لسنوات عديدة في مكان بعيد عنهم، لكنه يطل عليهم من علي؛ يتأمل حركاتهم وسكناتهم. لدرجة أن الصغار كلما اقتربوا من ذلك المكان، انغمرت نفوسهم بخوف ورعب شديدين، وهرولوا مسرعين نحو القرية، صارخين ملء حناجرهم: إن الغول قد طلع علينا بوجه مشوه، حيث عيناه بارزتان، وشفتاه غليظتان سوداوتان، وشعره طويل حتى غطى ناصيته. فعُدّ مكانُ هذا الغريبِ أسطورةً تقصها الجدات على الأطفال في كل ليلة اشتدّ فيها المطرُ الغزير، وانتشر رعبُ الرعد والصواعق الذي يهز قلوبَ السكان هزا.

فكان من بين الصغار الذين يستفهمون أمر عمر، طفل صغير اسمه أحمد، والذي كان كثير التساؤل والشك والحيرة. كما أن الفضول ملأ عقله منذ نعومة أظافره؛ ولأن والده، الحاج محمد المبجل المحترم، كان حريصا على العناية به، وتعليمه كل تعاليم الدين منذ أن بدأ يفتح عينيه على القرية، لم يكن ليحتاجَ في رَدْعه عن تصرفاته الصبيانية، كأي طفل من أطفال القرية، إلى حكي أسطورة الغريب. بيد أن جدته الطاعنة في السن، حملت

أعباء هذه المهمة بدون انتظار إذن من ابنها محمد، فصارت تخبر الصغير طوال ليالي الشتاء عن هذا الغريب الذي يسكن بعيدا عن القرية.

تقول الجدة :

" إن للحياة أوجها مختلفة، والناس مختلفون في نظرتهم لها قبل عيشها. كان اسم ذلك الغريب عمر. ولد في قريتنا منذ سنوات عجاف حيث الجوعُ يأتي على الأخضر واليابس، وكان أبوه لا يملك شيئا غير قطعة الأرض التي ورثها من جده محمد. هكذا، دأب عمر على أن يستيقظ صباحا قبل أن تطل الشمس علينا في مضاجعنا، ويذهبَ للمسجد القريب منا الذي بناه جده قبل مماته بالطين والتبن والقصب، فيظل هنالك متعبدا ومتهجدا إلى طلوع الشمس، ثم ينصرف إلى أرضه يقلم أظافرها وينقي أعشابها مرات ومرات، دون أن يزوره ملل أو كلل. وفي مقربة من القرية، يجلس مع غروب الشمس أمام أرضه يتأملها، وفي أحيان كثيرة، يخاطبها بملء حنجرته، حيث يردد كلاما هُرَاءً شبيها بكلام المجانين الذين يطربون القرية بهذيانهم صباح مساء. فكان الكلام الذي يردده عمر هو:

" هنا سأبني قصرا كبيرا واسعا، سيكون لي فيه خدمٌ وحشم، وسأتزوج نساء كثيرات؛ يختلفن بين بيضاءَ ناعمةِ الجسد، غليظة عريضة المنكبين، وأخرى عربية جميلة الهيئة والمنظر، لها شَعرٌ طويلٌ يغطي مؤخرتها حيث سأتخذه وسادة، وثالثة سوداء البشرة، مدورة الوجه، غليظة الشفتين، مسودة العينين. سأضع الجواري هنا حيث أشتاق إلى المسامرات وقرع الطبول وهز البطون. ولكني قبل ذلك، ينبغي أن أحفر بئرا عميقة قرب هذه النخلة؛ لأني أحتاج إليها لسقي الحديقة التي سأملأها بالتروع والحصون، وسأزرع فيها الزهور والورود، ومختلِفَ الفواكه التي تلطف

القلب والنظر، وتحبّب الحياة وتشجعني على الترف في هذه القرية النائية الفقيرة ".

كثيرا ما مرّ القائد زيدٌ بموكبه البهي، متجولا في القرية والجنود يحيطون به من كل جهة. لا ينظر إلى الأرض، ولا يفهم لغة تلك النملة الصغيرة التي تتململ هنا وهنالك مخافة بطش جنوده، ولا تبتسم وتخاطب قومها من النمل كما فعلت نملة سليمان؛ لأن هذا الأخير متواضعٌ ويحسن السمعَ والإنصات، وزيدا متكبرٌ متجبرٌ أنفه شامخ نحو السماء. فحدث أن رأى هذا القائد ذاك المسكينَ في أرضه يكدّ ويجدّ، يزرع ولا يحصد شيئا غير الأعشاب اليابسة التي ملّتْ وكلّتْ من انتظار قطرات المطر في صيف تلك السنة، فأعجب القائد زيد بتلك القطعة الأرضية لما لصاحبها من صبر وأناة على قيظ الصيف، فقرر أخذها منه سلبا وغصبا.

تحكي الجدة:

" إن هذا القائد كان ذا نفوذ في القرية، له أراضٍ كثيرةٌ تضم الحصةَ الأكبر في القرية، لم يكدّ يوما من أجل الحصول عليها بطريقة شرعية؛ كأن يشتريها من ذويها بمحض إرادتهم، وإنما يعتمد على الغصب والنهب بالقوة، حيث تراه سارحا طوال اليوم بين أراضي السكان المنكوبين الضعفاء المغلوب على أمرهم، يصطفي وينتقي أجود الأراضي حيث الماء يعانق أديم الأرض بلا تفاخر ولا كبرياء ".

لم يكنِ القائد يحتاج إلى تبرير هذه الأفعال الشيطانية التي يقوم بها في نهاره حيث يصول ويجول رفقة جلاوزته الشداد. فهو ذو نسب عريق موغل في القدم لأسرة عرفت منذ زمان بالسلب والغصب، والظلم والجور

على الفقراء والضعفاء، لدرجة أن أجداده كانوا لا يعرفون حرمة البيوت، ولا يخشون لومة لائم.

تقول الجدة:

" إننا حيارى أمام هذه الأسرة. من أين ورثت هذا المجدَ الغَاصبَ الجائر؟ أهي ظلُّ اللهِ في أرضه حيث تتصرف تصرفَه، وتحكم حكمَه، وتنزل أوامرها على الضعفاء؟"

كثيرا ما شكى عمر حزنه ويأسه للشباب الذين هم في سنه: لقد حكى واشتكى مما ألَمّ به من ويلات ونقمات بسبب القائد المغتصب الطاغي في أرض الله الواسعة.

يقول عمر:

" القائد زيد كان فقيرا منعدما لا يملك شيئا في القرية؛ لأنه أتى وافدا إلينا بعدما هاجر قريته التي توجد في إحدى القبائل الصنهاجية، تاركا أشجار الزيتون على كثرتها وقصدنا غريبا ليعصرَ قلوبنَا كما يَعصرُ الزيتَ في قريته. لقد كانت قريتنا عرضة للاستعمار اللدود الذي اتخذها مقاما له. وأين سيجد هذا المستعمر مكانا هامشيا منسيا مثل قريتنا؛ لا تنتمي لمركز ولا سلطة معينة؟

لقد شرع المستعمر في البحث عمن يشاركه في نواياه السيئة التي تأتي على الأخضر واليابس، فوجد خير عون في هذا الغريب زيد حيث صار الغريبان صديقين يشتركان في الأطماع نفسها. فبدأت أعمالهما في النهب والغصب: بدآ بتضييق الخناق على الأرض والحرث والنسل؛ يغصبون الناس أموالهم وأشياءهم إلى أن كبرت شوكة المستعمر في القرية، وزرع

الهول في قلوبنا وبيوتنا، فلم نكن نملك شيئا على حياتنا غير الخضوع والخنوع لهذا المستبد الطاغي الذي جمع كل مطامع الاستبداد ومصارع الاستعباد.

ولما تمكنوا منا، كلّ التمكن، صاروا يصولون ويجولون في القرية، يأخذون كل ما لذ وطاب من خيراتنا حتى وصلوا إلى أرضنا التي لم نكن نملك غيرها، فاغتصبوها منا في صمت رهيب. لقد أخذوها أخذا، وانتشلوها منا انتشالا حتى سمعتُها تئنُّ وتحِنُّ لقدم من يخدمها ويُقَلِّمُ أظافرَها، ويؤنسها في وحدتها.

لم يسلبونا أرضنا فحسب، وإنما أخذوا عقولنا فغدونا مجانين وسط أترابنا، وضيوفا ثقالا على كل أولياء قريتنا الصالحين الذين سكنوا لحودهم بغير عودة. فكم من ضريح زرته ليال طوالا، وكم من ركن ظللت فيه قابعا لا أحرك ساكنا. ولم أشفَ من جنوني حتى قصدت الجبل العالي، واعتزلت كل الأهالي، وفررت من الأعادي باكيا شاكيا للجبل وصخوره، فصرت غريبا مخيفا؛ لا يقترب مني صغير ولا كبير من سكان القرية. كنت أرمي بهمي لليالي المظلمة، وأناجي القمر كلما توقف لحظة أمام عيني، يبصرني من حيث أبصره. وكلما أتى النهار، يندثر القمر باكيا محتشما. كنت أسمع أخبارا عبر زفرات الحزن والأسى التي يرسلها ضعفاءُ القرية ومنكوبوها. فحدث ذات يوم أن سمعت بأن المستعمر اتخذ أرضنا قصرا له حيث الخدمُ والحشمُ يحيطون به. وأن الغريب زيدا قد نصبه المستعمر الغاصب قائدا علينا، ما جعله يتمادى في جرائمه. فكم جوّع من الأهالي. حتى وصل بهمُ الأمر إلى أن يتركوا أطفالهم جياعا يصرخون ويصرخون، مقبلين على دار القائد زيد، يطلبون رغيفا أو حفنةَ زرع أو

تمر يردون بها جوعهم الذي يُقطِّع أمعاءهم. فمرت السنون الطوال وأتى على الناس عام اشتد فيه الحر والقيظ والجفاف، فصاروا يقدمون أراضيهم للقائد بحفنة تمر فقط؛ يا للعجب ".

كانت الجدات تحكين عن أحد شيوخ القرية حكاية طريفة؛ وهي أنه ذات ليلة شعر وأبناؤه بجوع شديد، فهرول باكيا يستبق القمر نحو القائد، فوهب له أرضا كبيرة من أجل حفنة تمر. ولما حصل على مبتغاه لم يصطبر على الجوع الذي ينهش بطنه نهشا، فشرع يأكل في تلك الحفنة، وما إن وصل باب بيته حتى وجد نفسه قد أكل كلّ شيء، فخر أمام العتبة باكيا حظه المشئوم، يصرخ في صمت عجيب دون أن يفكر في دخول بيته. فكان الطريف المؤلم في القصة، كون هذا الشيخ أعاد الكرة مرات ومرات إلى أن فقد كلّ أرضه، باستثناء قطعة أرضية كانت تضم كنزا مجهولا بين نخيلها كما يزعمون، كانتِ الشيءَ الوحيدَ الذي ورثه أبناؤه منه.

هكذا، فقدَ عمرُ أرضَه وعقلَه واحتفى بالجنون والوحدة في الجبل، هذه قصة عمر الغريب. وكم من عمر مرّ عبر السنين والعصور؟ وكم من قائد موجود في زماننا نحن؟ وكم من مستعمر فرّ منا وترك لنا قوادا كثيرين من طينة زيد، يتممون ما بدأه من نواياه المخربة السيئة.

لم يكتف المستعمر في كل زمان ومكان بنهب الخيرات الطبيعية، وإنما له اليد الطولى نحو حضارات وثقافات وقيم الشعوب المستعمَرَة. ولعل هذا ما جعل عمرَ شخصيةً خالدةً في عقول كل أطفالِ القرية في كل زمان؛ لأنه كان مُتقدَ البصيرة، سريعَ الفهم وقراءة الخواطر والنوايا السيئة. لم يكن عمر كاهنا أو دجّالا يقرأ القلوب رجما بالغيب، ولا عرافا يختلس أموال الناس، بل كان ذا قدرات باطنية لا شعورية. حيث تمكن بفضل

حنكته من معرفة نوايا المستعمر ودسائسه، فاعتزل سكان القرية في مكان بعيد حيث الجبل.

فبعدما فقد أرضه، قرر أن ينشر الوعي في صفوف أطفال القرية وشبابها. لم يكن ليعتمد على شيوخها؛ لأنهم، وكما قال الشاعر العربي، لا ينفعون في الانقلاب على هذا المستبد المغتصب:

إن البلاد لتبغي في عصرنا هذا انقلابا

ما لي رجاء في الشيوخ وإنما أرجو الشبابا

من كل وثاب إذا أغريــ ته اقتحم الصعابا

لذلك كان اهتمام عمرَ منصبا على الأطفال والشباب في القرية، حيث تراه وحيدا بين الهضاب والسهول. لا يرى شخصا غير الحشرات التي امتلأت بطونها سما زعافا، ولا يسمع سوى أصوات الطيور الجارحة التي تحلق في السماء تاركة أوكارها.

كان عمر مختليا بنفسه، سائحا في أرض الله الواسعة، متفكرا في آيات الكون الفسيح. فاستمر على هذا الوضع أياما وأياما إلى أن بدأ أطفال القرية يتشوقون إلى فك طلاسم هذه الأسطورة الغريبة التي انتشر صداها بفعل التداول، وعبرت القرية إلى القرى المجاورة البعيدة، مما زاد من تأجج نار الحيرة والشك في العقول، والاضطراب في النفوس.

لقد كان أحمد واحدا من هؤلاء الأطفال المتحمسين إلى لقاء عمر في الجبل، منطلقا كغيره من الأطفال، من التهويل الكبير الذي ساهمت فيه الجدات. فاستطاع هذا الطفل الصغير المشكك المحب لاكتشاف عوالم

المجهول، ونزع النقاب عن المسكوت عنه بين سكان القرية أن يصل إلى مكان عمر، ومرد ذلك لكونه بدأ ينمو مع الأيام، وفطنته جعلته يتسلل من المواعظ والنصائح التي ما فتئ والده يصبها على رأسه صباح مساء.

لم يكنِ الوصول إلى مكان عمر حيث الأماكنُ الوعرة، والوحوشُ الضارية المفترسة، سهلا بالنسبة لطفل صغير يبلغ من العمر عشر سنوات. لكنه تجشم وعثاء هذا السفر حتى وصل إلى مكان الغريب، حيث ظل متوجسا ومترقبا لكل صوت خافت سمعه، حتى وإن كان ناتجا عن وقْع قدميه فوق الصخور.

فلما بلغ أحمد الجبل، وجد أن عمر لم يكن ذاك الوحشَ الضاريَّ المخيفَ كما تردد الجدات والأمهات في البيوت، وليس الغريبَ الذي عاشر الوحوش، وسامر الحشراتِ الليليةَ المزعجة، وإنما هو شاب يبلغ الثلاثين من عمره.

التقى الطفل بعمرَ في استغراب حين رأى ثغره مبتسما، فمد إليه يدَه البيضاءَ الصافيةَ من كل الجرائم، وأدخله جحرَه المظلمَ كأنهما في غيابة الجب.

يقول أحمد:

" إن عمر بشر مثلنا وليس غولا كما حكت لي جدتي، وإنما هو شخص مثقف له درجة عالية من الوعي والفطنة والذكاء. يسكن جحرا مظلما، ويفترش جريدا من النخل. ويتوسد صخرة بيضاءَ تحن عليه حنين الأم لابنها بعد هجر قصير، فكانت له أما يخبرها عن آهاته وما صادفه من قسوة البشر، أولئك الذين عرفوا بالجور والجشع، والنهب والسلب. كما

أن الحجرة كانتِ الورقةَ التي يكتب فيها كلَّ تصوراته حول الاستبداد والاستعباد، وكيف يستغل الطغاةُ الدينَ من أجل الوصول إلى مصالحهم الدنيوية، وكيف... وكيف؟ كلها رؤى وتصورات تقض مضجع عمر في ذلك الجبل المهجور. ولم يكن ليجد لها جوابا مقنعا لولا زهدُه في الحياة وملذاتها، وتشوقُه لصفوة العقل من الأوهام والخرافات، وتنقية النفس من أدران الشر والحقد والطمع، وحب الشهوات والقناطير المقنطرة ذهبا وفضة.

لقد كان يقضي أيامه في تدبر آيات الله المرئية التي تنسجم مع ما حفظه من آياته المقروءة؛ محاولا بلوغ غاية سامية كبرى حيث تغدو معها الحياةُ شفّافةً، والحقيقةُ متجليةً واضحةً وضوحَ الشمس.

اقتربتُ منه اقترابا. ثم بدأت أسأله عن سبب اعتزاله القرية وأناسها، بل الدنيا وملذاتها، وعن سبب هذا الفرار والتقشف في العيش؛ فكان سبب محنته هو القائد المغتصب المسمى زيد الذي عانى معه سكان القرية الأمرين".

لم يكن عمر ليصبر على هذا الظلم الذي لم ينزل به الله سلطانا، ولا ليسكت عن الظالم الذي لا يعرف لشريعة الله حرمة؛ إنه مثقف القرية الذي يعلم أن لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، وأنه مطالب بتغيير هذا المنكر بكل ما أوتي من قوة. بدأ مناهضةَ أعمال القائد المنبوذة والجائرة التي بلغت حمْلَ بعير، بالقول قبل الفعل؛ إذ فكر وتدبر، ثم قرر أن يبعث إليه رسالةً لعلها تلطف قلبه، وتوقظ عقله من سباته العميق، وتردعه عن سكان القرية المغلوب على أمرها.

لم تكن رسالةُ عمرَ لتصل إلى غايتها، بل كان مآلها أن تختفي بين رفوف الجرائم الكثيرة التي اقترفها القائد زيد. وهكذا، بدأ عمر ينشر أفكاره الثائرة على الاستعمار بشتى صوره.

مرت ليالي الشتاء كلها في جو مليء بالأسى والحزن. لكنها، وفي المقابل، كانت حافلة بنشر الوعي، باعتباره سلاحا لكل ضعيف على وجه البسيطة.

فمن جملة الخطابات الثورية التي يصبها هذا المثقفُ العضويُّ على رؤوس الشباب أن يعملوا على إماطة اللثام عن نوايا المستعمر، وكذا تبيان كل استراتيجياته في القرية التي تعد مقاما آمنا ومطمئنا بالنسبة إليه. هكذا، كان عمر يصول ويجول طوالَ شتاءِ تلك السنة: يخطب ويوضح ويحرض، وبعد ذلك يبدأ في جمع العدة والعتاد للثورة على هذا القائد الذي يعد نقطةً من بحر مليء بأمثاله الذين يبطشون بغير رحمة، ويغصبون عباد الله نهارا، ثم يهرعون إلى عبادة الله ليلا، كأن شيئا لم يكن مما اقترفوه من جرم في نهارهم.

مع مرور الأيام، قرر الشبابُ الوثّابُ دخولَ قصر القائد وإخراجَه بالقوة من القرية. لم يكن في البداية، هذا الأمر صعبا أمام شباب قد احتسوا كؤوس الذل والإهانة أعواما عديدة، فانتهكوا في حرماتهم، وغصبوا في أراضيهم وديارهم، وشردوا في واضحة النهار. لكنهم، وبمجرد ما صار الثائر عمر وسط الحشود يعظها ويدعوها إلى الثبات أمام هذا البلاء العظيم، ذهبوا بدون رجعة ولا هوادة؛ يهرولون كمن يأخذ نفسه نحو النهاية ببسالة وجرأة حتى وقفوا أمام باب القصر الكبير، فحدث ما لم يخطر في خلد أحد منهم. إذ وجدوا القائد غارقا في مجونه وترفه، ومنعما في قصره الذي بُني على أكتاف آبائهم الضعفاء.

لقد كان القائد محتفلا ككل يوم. حيث الطبولُ تقرع قرعا، والبطونُ تهز هزا في ربوع النهار، والمأكولاتُ المتنوعةُ التي لم يسبق لشباب القرية أن رأوها أو سمعوا بها.

لقد بدا المشهدُ كأنه لوحةٌ مقتبسةٌ من بعض ليالي الخلفاء العباسيين الذين عرفوا بالترف فيما كانت الرعية المسكينة تعيش فقرا مدقعا. تحتفل بسوء أحوالها، وتترنم بصراخ صغارها الجياع في كل ليلة مظلمة من ليالي الشتاء.

بعدما اقتحم الثائرُ وأتباعُه القصرَ، ووقفوا شهودا في هذا اليوم الموعود على هذا الأمر الجلل، لم يكونوا لينسوا المهمةَ الساميةَ النبيلةَ التي أتوا من أجلها، فصار عمر يخطب في الجمع بكلمات رنانة، وبسالة تنم عن حرقة قلبه وعزة نفسه. ما جعل عيون الشباب تتقد حماسا للظفر بالقائد.

لقدِ استطاع الثائرُ عمرُ تحريضَ الشباب على القائد، فكانت تلك الليلةُ عصيبة؛ كأن اللهَ قد سخر هؤلاءِ الشبابَ حتى يدمروا هذا الطاغيةَ تدميرا، فلكل نبي فرعونُ، ولكل مستبد ثائرٌ ينزله بفعل وعيه من عليائه إلى أسفل سافلين.

ففي كل زمان هناك طاغيةٌ يستبد بالضعفاء، ويستعبدهم بعدما ولدوا أحرارا طلقاء، لكن الله يخلق له ثائرا من أمثال عمر. وما أقل الثوارَ في زماننا الحالي، وما أكثر المستبدين المغتصبين الذي يأتون على الأخضر واليابس، ويمتصون دماءَ الفقراء الضعفاء، ويشيدون القصورَ بأكتافهم وأموالهم ونفقاتهم، ويستحيون نساءَهم خلسةً وخفاء، ثم يحتفلون في كل ليلة بهذه الأعمال الاستبدادية.

ما أكثرَ القوادَ المستبدين في كل زمان ومكان، وما أقل الشبابَ الوثابَ في أيامنا؛ لأن السواد الأعظم من شبابنا لم يشبهوا عمرَ في شيء، لا في وعيه وفطنته، ولا في ثورته وعزة نفسه، إنما تراهم قد ضيعوا دينَهم وثقافتَهم وتقاليدَهم، وانصرفوا وراء الملذات والشهوات؛ إنهم مقلدون عميان يركضون دون أن يعرفوا إلى أين يتجهون.

انتهت تلك الليلة بانهزام عمرَ والثوارِ الذين اصطحبوه؛ ففشلوا فشلا كبيرا، وسحقوا سحقا صارخا، حتى صاروا يسقطون واحدا تلو الآخر أمام جلاوزة القائد الذين كانوا غرباءَ عن القرية وسكانها، بل منهم بعض عناصر الاستعمار الظالم الجائر.

لم ينج في هذه الليلة سوى عمر الذي فرّ بجلده، واتخذ له الجبل مستوطنا دائما، فاستمرت حياته على ما هي عليه من تفكر وتدبر وتأمل إلى أن أتاه أحمد الصغير الذي بدأ يخبره بما قاساه سكان القرية بعد تلك الليلة المشؤومة؛ لأن الأمور ازدادت سوءا. فبعدما كانتِ القريةُ حرةً طليقةً لا تحدها حدود جغرافية معينة، لها خصائصُ طبيعيةٌ خاصة بها، وتضاريسُ متنوعةٌ، أمست ضيقةً بما رحبت، وصارت خرابا لا تطمئن له النفوس.

****

دمعة المغترب

للغربة دمعتان؛ والدموع كثيرة. لكن دمعة المغترب عن الوطن تنبع من أعمق النفس. فهي تعبير عن الرفض، رفض الاغتراب. هي صرخة مدوية لمولود غادر بر الأمان، هي هزيمة محارب في الحرب الضارية، هي موت بدون موعد. هي زفرة ثائر خمدت نار ثورته، هي ريح صرصر تغمر قلب المظلوم من شدة وطأة جور الظالم؛ هي ضرورة حتمية لا حرية واختيار، هي بحث دؤوب عن الممكن ونفور من الكائن.

هي وجع كل من ذاق غربة الأوطان؛ بيد أن وجعها لا يقل ألما عن وجع الغربة في الوطن؛ لأن هنالك غربتين اثنتين: غربة الوطن وغربة عن الوطن، وكلتاهما أشد وطأة على المغترب، كما أن لهما دمعتين ساخنتين تنبعان من غياهب النفس المغتربة والمتغربة.

في هذه الأثناء وطّن سمير نفسه على السفر؛ لأنه كان يريد تتمة مساره الدراسي في الكلية، مما بعث على الحيرة في نفس والديه اللذين ظلا الليل كله، يفكران في المدينة التي سيرسلان إليها ابنهما، لأنه لم يسبق له أن غادر القرية، وهذا ما جعلهما يخشيان عليه الغربة والاغتراب. فكثيرا ما تساءل الفقيه وزوجته خديجة عن المدينة المناسبة لابنهما سمير الذي بلغ من العمر ثماني عشرة سنة، وقد تحصل على شهادة في الدراسة خولت له الاستمرار في مساره الدراسي. فبعد حيرة دامت ساعات طوالا، قرر الوالدان أن يبعثا ابنهما إلى مدينة مراكش التي سبق للفقيه أن زارها مرات عديدة، كما أن له أصدقاءَ قدماءَ هنالك، فصار باستطاعته أن يوصيهم

على ابنه الذي ما زال في ريعان شبابه، ولم يسبق له أن تغرّبَ عن مسقط رأسه.

لم تكن أسرة الفقيه علي وحدها التي ذرفت الدموع على هذه الغربة، وإنما هنالك أسر كثيرة في القرية، ظلت طوال تلك الليلة التي ستكون الأخيرة مع أبنائهم الذين سيرحلون عنهم، غارقةً في دهاليز التفكير؛ لأنهم يحسون شعورا غريبا تجاه أبنائهم.

جمعت الأم حقيبة سمير في الليلة المعلومة، فضمّنت هذه الحقيبةَ كلَّ أنواع الفواكه التي يزرعها السكان، ومبلغا ماليا كانت قد وفرته من الأعمال التي تقوم بها في بيتها كشأن النساء في القرية.

لقد كانتِ الأم تربي عددا كبيرا من الدجاج والحمام، فتبيع البيض بعدما تجمعه لأيام عديدة، فتمكنت من مساعدة ابنها. أما الفقيه فإنه لم يكن غائبا في المشهد، وإنما قد تحمل هو الآخر مصاريفَ السفر، ودخل غرفة مظلمة تُعد المكانَ الذي يخبئ فيه أفراد الأسرة المؤن، ففتح جرة كبيرة تضم بعض المخطوطات العريقة، إلى جانب كل ما اذخره من أموال في عمله داخل المسجد، ثم مدّ ابنه بقدر من المال يعينه على القيام بشأنه في المدينة.

لقد كان الفقيه علي يؤم الصلاة بالناس هنالك، كما أنك قلما تجد احتفالا أو عرسا أقيم في القرية إلا والفقيه علي في ناصيته يعظ ويذاكر الناس في أمور دينهم ومعاشهم.

بعد الكثير من الكد والجد تمكن الوالدان من جمع أغراض ابنهما، كما أن سمير لم ينس زيارةَ صديقه إبراهيم للمرة الأخيرة في الجبل؛ لأنه كان

يعرف أنه سيغيب مدة طويلة عن القرية، وأن هنالك أمورا متعددة ستتغير، لذلك تراه يقف وقفة الجندي المنهزم في الهيجاء أمام عدوه؛ إذ يلقي النظرة الأخيرة على مسقط رأسه من ببعيد كما ودع الملك الصغير الأندلس بعد سيطرة الاسبانيين عليها. لم يكن لسمير بدّ من الرحيل في هذه السن المبكرة، كما أنه ليس سهلا عليه أن يودع المكان الذي ولد ونشأ فيه، وما أصعبَ وداعَ الأم الحبيبة ساعة الرحيل.

ركب سمير الحافلة مع السابعة مساء بعدما ودع والده الذي اصطحبه إلى المحطة. ثم صارت الحافلة تقارع الطريق، وتصارع عجلاتُها الزفتَ الأسودَ حيث تراها تتهاوى بين الجبال في طريق ملتوية معبدة، كما تتهاوى السيوف في الحرب.

لقد كان الوصول من القرية إلى مراكش يستغرق خمس ساعات من الزمن، فالطريق توجد وسط الجبال العالية، مما جعل الركاب يدخلون في غيبوبة طويلة. منهم من اضطر إلى التقيؤ، وآخرون آثروا النوم في مقاعدهمُ الضيقة المتزاحمة، فضلا عن الرائحة النتنة التي تنبعث من الحافلة.

لقد كانت رحلاتُ الفقيه المتكررةُ إلى مختلِف المدن المغربية كفيلة بتشوق ابنه للسفر. ففي كل مرة يعود فيها الأب يقص على ابنه كل تفاصيل الزيارة من الذهاب حتى الإياب.

كان الأب يقول لابنه أشياءَ غريبة، وبعيدةً عن منطق العقل الذي فر من محنة الخرافة والأسطورة. فرغم كون الفقيه علي حفظ القرآن في سن مبكرة من عمره، وتعلم الدين على يد شيوخ القرية الكبار الذين وارهمُ التراب، إلا أنه لم يسلم من التصديق بالخرافة التي كانت سائدة في العقل

الجمعي. والفقيه غير ملام في ما حلّ به، لأنه نشأ وتربى في بيئة اجتماعية لها ظروفٌ اجتماعيةٌ ودينيةٌ معينة، ما جعل كل أبناء القرية ضحايا هذه الخرافات والأساطير المهولة.

وبعد مرور الوقت، طلب سائق الحافلة من الركاب أن يستعدوا لمغادرتها حتى يتناولوا عشاءهم، وتسترخي أعصابهم ويتنفسوا الصعداء، وبعده يسترسلون في سفرهمُ الشاق الذي سيدوم ثلاث ساعات أخرى.

نزل الركاب وهم يمشون الهوينى، ويتمايلون كأنهم كانوا سجناء منذ سنوات فأفرج عنهم حديثا. انتشر الجميع وتفرقوا كما يتفرق النقع فوق رؤوس الفرسان في الوغى: كل واحد قصد مكانا معينا لحاجة في نفسه هو قاضيها. وعلى حين غرة، التفت سمير نحو شخص كان يشوي لحوما للناس؛ إنه لحم مطحون يشوى على الفحم، مما لفت نظر الشاب فقرر أن يقترب منه ليشتري كسرة خبز وقليلا من اللحم. فلما اقترب منه حدثه بصوت خافت متسائلا:

" - بكم تبيع هذا الشواء يا عم؟

- كل شيء وثمنه. فاختر ما ترغب في أكله وأنا سأعده إليك حالا.

- أريد قليلا من اللحم المطحون مع القليل من البنذورة.

- مرحبا بك... فهلا تفضلت بالجلوس في تلك الكراسي؟

- حسنا.."

جلس سمير يتأمل الناس وهم يأكلون، حيث لمح أن كل واحد يأكل وحده ودون أن يجتمع مع غيره، فبدأ يتذكر وجبةَ الغداء الأخيرةَ التي اجتمع

فيها مع أهله، إذ كانت آخر لمة له معهم قبل السفر. لم يكن له مجال للتذكر طويلا، فها هو صاحب المطعم يضع أمامه صحنا فيه لحم مطحون طُهي على الفحم، وقليل من البنذورة في صحن صغير.

بدأ يلتهم العشاء التهاما ونسي الحنين إلى الموطن. ثم شرع في التفكير في ما سيأتي من الأيام، وما تخبئه له من أحزان ومسرات. كما أنه يفكر في المدينة، وكيف سيتأقلم مع أجوائها المختلفة.

لم يكن هذا الوقت، بالنسبة لسمير، وقتا مناسبا للتفكير السليم، وها لحظة الاستراحة انتهت كأن الزمن يطوي الحياة طيا، ويفر بنا حيث لا تشتهي أنفسنا، حيث المشيب والشيخوخة، ليتوج أيامنا بالمنون الذي يجعل المرء يريح ويستريح. لقد صعد الجميع إلى الحافلة بعدما أصدر السائق منبها على انتهاء وقت العشاء، وصار كل واحد متجها كالثكلى نحو مقعده، فاستؤنف السفر نحو مدينة مراكش، وتم إطفاء المصابيح الصغيرة المشتعلة من داخل الحافلة، ثم نام الجميع نوم اللحود، إلى أن صدر صوت غليظ، بعد مضي ثلاث ساعات، يوقظهم من سماوات الحلم التي يسبحون فيها:

" هيا يا قوم، على سلامتكم... لقد وصلنا مراكش ".

لقد كانت المحطةُ موضعَ استغراب بالنسبة لسمير، وذلك يعزى إلى الوجوه الغريبة التي لم يعتد على رؤيتها في القرية. كما أنها مكتظة بالمتسكعين وأولئك الذين لم يجدوا مأوى لهم يأوون إليه بأجسادهم النحيفة سوى تلك الأركان الهامشية المظلمة في المحطة. لم يكن لدى المتشردين وذوي الشوارع مسكن قار يواري سوءتهم من برد ليالي الشتاء القارس. كما أنهم لم يكونوا الوحيدين الذين يعيشون على هذه الحالة الهزيلة في

المجتمع، بل هناك فئات اجتماعية هامشية لم ينصفها القانون الوضعي في البلاد، فضلا عن كونها لم تختر مصيرها ذاك.

إن المتشردين هم أصناف عدة؛ منهم المجرمون الذين يقترفون الخطايا في الليل الدامس حيث الشوارعُ شاغرةٌ، والناس نائمون في بيوتهم فارهين، والشرطة الليلية تحرسهم حراسة. ومنهم أولئك المحرومون السائمون الذين ملوا وكلوا من مصارعة الأيام وصروفها، واستسلموا طعما سائغا للشوارع التي تلتهم أجسادهم التهاما، والتي تعد معتركا لكل المتواجدين بها حيث البقاء للأقوى، والقوي يأكل الضعيف. إلا أننا لا ننسى أيضا، أن للشوارع ميزةً كما هي الحال في الطبيعة؛ فالحيوانات في الطبيعة تقوم على مبدإ الاصطفاء والانتقاء للأفضل والأجود، ومن ثم يغدو الحيوان مطالبا بالحفاظ على نوعه من الانقراض والاندثار؛ لأن الطبيعة لا ترحم الضعفاء، لذلك نجد الأمر ينسحب على الكائن البشري أيضا؛ فالشوارع تضاهي الطبيعة في قانونها. فالأشخاص المتشردون في الشوارع هم أيضا مطالبون بصيانة وجودهم؛ لأن ثمة قانونا يقوم على القوة والغلبة، مما يجعل الأشخاص الذين يفوزون في هذه المعركة الليلة هم مالكو الشوارع بفعل الاصطفاء والانتقاء للأقوى، وليس انتقاء الأفضل. كما أن هنالك صنفا آخر يضم اليتامى والمتخلى عنهم، إذ بعدما غُيّب دورُ البيت والأهل كان الشارع ملجأ أخيرا لهم.

لم يكن سمير ليتعرف بعد على هذه الكائنات البشرية المختلفة. لقد نزل مراكش ضيفا جديدا باحثا عن ذاته ومستقبله، كما جميع الشباب الآخرين في الوطن الجريح. فصار يجول ببصره هنا وهناك باحثا عن مكان يمكث فيه حتى يأتي ضوء الصباح الخجول. وبعد هنيهة من الزمن، تمكن من العثور على مكان للمكوث فيه قرب شيخ هرم يعد ضحية من ضحايا

الحياة القاسية. لم يكن هذا الشيخ المسكين يمتلك لباسا كاملا يغطي سوءته، ويدفع عنه البرد القارس الذي يلفح الوجوه، بل كان يرتدي عباءة مرقعة بالية، تكاد تُظهر نصف جسده النحيل الممتلئ بالتجاعيد، والذي يُظهر مدى حرب الليالي التي مر منها. حيث بقي منه ما رآه سمير بعدما مكث غير بعيد منه، فارتأى أن يباشره بالسلام لعله ينتزع منه خبرا عن مدينة مراكش، خصوصا أنه ما زال حديث العهد بها؛ إلا أنه لم يستطع أن يوقظه من نومه العميق، وإنما اختار مكانا بالقرب منه وبقي يتأمله ويتدبره، والأسئلة تراود خلده السؤال تلو الآخر.

إن سمير غريب في المدينة التي تلتهم الناس بشوارعها المتسعة، وأناسها الذين يستبقون الزمان طوال اليوم، لا أحد يلقي السلام للآخر، كما أن لا أحد يلتفت وراءه إن سمع صريعا يستغيث، أو مريضا يتقطع من شدة الوجع، أو جائعا قد قطّع الجوع أمعاءه، أو مهموما قد أثقلت الهموم والشجون قلبه، فالجميع يركض ويركض. أما الشيخ النائم فإنه لم يبرح من مكانه قط رغم بزوغ ضوء النهار وشروق الشمس الذهبية الساطعة. كل ذلك بعث الشكوك والظنون في نفس سمير.

كانت الحيرة تملأ عقل الشاب. فتقدم نحو الشيخ يحركه بتريث دون أن يستجيب، فحاول القيام بذلك عبثا؛ لأن الشيخ قد توفي بعدما وصل سمير إلى المدينة، وما كان يتأمله ويتدبره هو جثة هامدة، أو هو جسد بلا روح، أو حياة بلا أمل. إنه بقايا شخص قد فرت روحه منه بعدما تعذبت لسنوات، وتجرعت من كؤوس الألم ما تجرعت، وقارعت صعاب الدهر ونوائبه وقتا طويلا، وقاومت برد الشتاء في سنوات، فلم تجد من يضمد جروحها، ولا من يأويها ويعتني بها، بل لم تجد قلوبا رحيمة تلتفت إليها. ضاعت إنسانية الإنسان في المدينة التي دخلت طور الحضارة، وبدأت تلعق من

علقم الحضارات المادية التي غيبت الإنسان بعدما جعلته محور الصراع، واستطاعت أن تفرغه من جانبه الروحي والعاطفي، لترديه في الأخير، إنسانا بلا قلب ولا قيم كونية ينشدها ويطلبها ويدافع عنها.

هنا، يظهر لنا الفرق الشاسع بين القرى والمدن: فسكان القرى متحدون ملتحمون في السراء والضراء، وإذا ألمت بأحدهم مصيبة هرعوا إليه مواسين ومطمئنين؛ لذا نجد أن هنالك قيما إنسانية قابعة في نفوسهم منذ أن ولدوا، كما أنها متجذرة في البيئة الاجتماعية التي نشئوا فيها. إنها البداوة التي تحمل مميزاتٍ وخصائصَ تختلف عن خصائص الحضارة. وكثيرا ما تجد القيم الإنسانية ملاذا في القرى، وأرضا خصبة لتترعرع فيها.

أما المدينة الحضارية فإنها لا تحفل بهذه القيم إلا نادرا، بل إن ما يميزها هو طغيان الفردانية، وتغييب واضح لحياة الجماعة الملتحمة كما حال المجتمعات البدائية.

فكم من شيخ توفي ضحية هذه الحياة القاسية. إنهم يعدون ولا يحصون ويد الدهر، فهم موجودون في كل زمان ومكان.

ما زال الشاب مشدوها أمام هذا المشهد المريب، ولا يدري ما يفعله تجاه هذا الشيخ. وهل يمكننا أن ننقذ الضعفاء من الموت؟ وهل بمقدورنا أن نبعث الحياة في أجسادهم من جديد؟ هذا إذا لم نكن نعلم أن الموت حرب ضارية تأتي على الصغار والكبار، الأغنياء والفقراء؛ كما أن "كل نفس ذائقة الموت"، و"إنا لله وإنا إليه راجعون".

صرخ الشاب صراخا مدويا محاولا اختراق كبد السماء، ما جعل الجميع يلتفت نحوه بعدما كانوا لا يلتفتون؛ فأتوا مسرعين مستغربين من هذه الصرخة المنبعثة، والتي تحمل تحرقا في مهجة من صدرت عنه، ليروا الشيخ جامدا في مكانه لا يحرك ساكنا، ثم تفحصوا أمره فعرفوا أنه ميت.

فاتصلوا بالشرطة المتواجدة في المحطة، لكنهم لم يكلفوا أنفسهم مشقة المجيء للاطلاع على هذه الحادثة، وإنما اكتفوا بطلب سيارة إسعاف، حتى تنقل الجثة إلى مستودع الأموات بالمستشفى، وبعد لحظات قليلة يتم دفنها كما أن من توفي هو حشرة صغيرة. فهذا هو حال الضعفاء في المجتمعات التي لا تقدر قيمة الإنسان ووجوده كذات، خلقها الله تعالى واعتنى بخلقها، أيما اعتناء، وأوجدها في هذه الأرض من أجل تعميرها.

لقد مات الشيخ فترك مكانه لشيخ آخر سيأتي في لحظة قريبة ليأخذ المكان نفسه، ويمر من الظروف عينها، وينتظر حتفه ومصرعه كما كان الشيخ السابق ينتظر.

حمل سمير حقيبته وهو كظيم من جراء ما حدث معه في أول صباح بالمدينة، فامتطى سيارة أجرة متجها إلى حيث يسكن صديق والده، ولأنه لم يكن ليعرف الطريق، ارتأى أن يطلب من السائق أن يصطحبه لمبتغاه، وكذلك شاء الله أن يفعل.

وصل الشاب منزل صديق والده، فاستقبله بحفاوة وانشراح، ثم طلب منه أن يسكن مع أولاده حتى ينهي دراسته التي هاجر قريته لأجلها. ولعل هذا الأمر قد زرع الأمل في نفس سمير، وشجعه على السعي والاجتهاد نحو غايته.

مرت الأيام في مراكش سريعة، فتحصّل سمير على دبلوم في تخصصه. ثم عاد إلى القرية ليستثمره في مشاريعها الكبرى، والتي تخيلها منذ أن كان صغيرا، غير أنه علم أخيرا أن حلمه ممكن نظريا، لكنه مستحيل عمليا، لذا مكث في قريته ينتظر الذي يأتي ولا يأتي، كباقي الشباب هنالك.

****

حب عابر

قد تمر بنا الأيام مسرعة في المكان، لا نكترث للزمان الذي يركض بنا دون أن نحس ذلك. ولكن سبب هذه اللامبالاة يكون نابعا من انصهارنا وسط غاياتنا وأهدافنا. حتى ونحن في السعي نحو المبتغى، فإن ثمة أشياء تعترض طريقنا، وتظهر فيها بين الفينة والأخرى. فكان من بين الأشياء التي تعترض طريق الطالب أن يتعرف على طالبة في الكلية، وهذا ما حدث مع خليل.

ففي الأيام التي قضاها في الكلية، كان منعزلا عن الآخرين؛ لأنه يخشى الاختلاف، لهذا كان دائما حريصا ووفيا للعزلة. فحدث ذات يوم أن دخل المكتبة. ثم شرع يجول ببصره هنا وهناك، باحثا عن كرسي يجلس عليه ليراجع دروسه، فلم يحصل على غايته، فارتأى أن يذهب إلى الكراسي الخشبية الموجودة في جنبات الكلية؛ أخذته رجلاه حيث تجلس طالبة، فرآها غارقة في كتاب، لم تنتبه إليه إلا وهو يلقي إليها السلام، ويستأذن منها بالجلوس جانبها، ويداه ترتجفان من الخجل.

جلس جانبها والصمت يصول ويجول بينهما في ذلك المكان، ومما يجب ذكره هو أن شخصية الإنسان تنشأ على مصدرين اثنين؛ هما الوراثة والظروف الاجتماعية.

فمن حيث الوراثة، فإن خليلَ ورث عن والده الوقار والخجل والالتزام بالمبادئ، وسلوك الطريق القويمة التي تقود إلى الحق جل جلاله. لذلك تراه لا يخالط فتاة. حتى إنه لا يستطيع أن يرفع عينيه للنظر إلى امرأة من نساء القرية، وهذه عادة اختص بها شباب القرى. فالخجل والحياء هما

ثمرتان لشجرة عريقة متجذرة في الوعي الجمعي، وفي البنية التكوينية لأهل القرى.

أما الظروف الاجتماعية، فهي تظهر في العلاقات بين رجال ونساء القرى. فالنساء هنالك، لا يخرجن إلا نادرا. فهن لا يغادرن البيت إلا في مناسبات كبيرة، وذلك بعدما يلتحفن لحافا أسود لا يظهر شيئا من زينتهن. والذي نشأ في القرية من الذكور، لا يجد بدا من الالتزام بهذا العرف القروي، لذا نشأ خليل و رأسه مطأطئة إلى الثرى دوما، وقلما يرفع عقيرته للنظر إلى امرأة، ولعل هذا ما ظل يرافقه طوال السنوات التي قضاها في الكلية، لو لم تظهر هذه الطالبة في طريقه.

تمتمت شفتاها بكلمات:

- " اسمي فاطمة، ما اسمك؟

- اسمي خليل ".

لم يزد الشاب على ما قاله كلمة واحدة، ثم عاد إلى مطالعة دروسه، لكن فاطمة شغفت بهذا المخلوق الغريب بالنسبة إليها. فهذه ليست المرة الأولى التي تراه فيها، وإنما ظلت ترصده توجسا وخيفة الأيام تلو الأخرى، إلى أن أتت اللحظة السانحة، لذا فإن ضياع هذه الفرصة سيؤدي إلى نهاية الجنين الصغير الذي بدأ يظهر بين ظهرانيهما. فسولت لها نفسها أن تسأله عن مسقط رأسه، ولعل هذا ما بدا عبثا له؛ لأنه كان يظن أنه منفرد من بين طلبة الكلية، فهو ذو لون قريب من السمرة، وصاحب لهجة تعرب عن كونه ابنَ القرية. لكن الأمر انقلب فجأة، ثم أجاب عن سؤالها الذي أدى إلى تناسل أسئلة أخرى بحيث إنه لم يعترض على الإجابة قط.

إن الحب طفل صغير للعاشق وعيشقتُهُ، أو للمحب وحبيبته. إنه شعور يطوق قلوبنا تطويقا، ولا ينتظر منا إذنا للدخول، بل تراه يخترق قلوبنا اختراقا، ويظل ينمو بين ظهرانينا يوما بعد يوم. ومهما طال النماء، فإن للجنين لحظةً ينبغي أن يخرج فيها إلى الوجود حتى يأخذ شرعيته لدى العاشقين. فرغم الومضات التي تصدرها عيوننا تجاه من نحب، والكلمات الهادفة التي تنبس بها شفاهنا، إلا أن الحب يحتاج إلى الإفصاح، وقد ورد عن النبي الكريم أن من كان يحب شخصا فليخبره.

كما أن الحب سيف ذو حدين. فهو قيمة إنسانية كبرى، بحيث إنها لا تكترث للاختلافات العرضية من لون وجنس ولغة، وإنما تقفز على هذه الجزئية لتترقّى إلى مستوى الكونية. لذا، لا يجدر بنا أن نستحضر العوائقَ والموانعَ الدينيةَ والعرقيةَ والثقافيةَ التي تعترض طريقنا نحو الحب، وإنما ينبغي أن نهيم نحوه، ونهبّ إليه كما يهبّ الصوفي إلى الله، لينصهر في العشق الإلهي. ولئن أحببنا الله فإننا حتما سنحب مخلوقاته التي أودعها سر صنعته الكمالية. كما أنه حرب وهاجة ومعترَكٌ للعشاق. فإما أن تخرج فائزا، وإما أن تهزم هزيمة شنعاء. وكما قيل: **إن من الحب ما قتل.**

على أن ثمة طعما خاصا بالحب، وغاية مختلفة: فهو ليس سعيا للغلبة على العدو، ولا جشعا للحصول على الغنيمة والسبايا. بل هو صراع من أجل الظفر بقلب المحبوب.

الحب بلسمُ الجروحِ المندملةِ التي تعانيها البشريةُ جمعاء. وبالحب نحارب العنف وننبذ كل أشكال التمييز والعنصرية.

إن البشرية تحتاج إلى الحب الكوني كما يحتاج الظمآن إلى الماء. إنه السراب الذي يركض وراءه كل الذين ينشدون السلام الكوني. وما من

شفاء لداء الحروب سوى الحب الصوفي الكوني الذي لا يعير اهتماما للاختلاف العرضي، بل يؤمن بوحدة المصدر، ووحدة الصانع الماهر الذي أحكم صنعته إحكاما. فما دام الاختلاف قانونا من قوانين الحياة، فإننا في أمس الحاجة إلى طرق سليمة لتدبير هذا الاختلاف وتدجينه، حتى يفرغ من حمولته الحيوانية التي أخذها عن الطبيعة القاسية وقوانينها، ويشحن بالحب الكوني الذي لا ينضب أبدا.

إننا في حاجة إلى حب الإنسان حبا مطلقا، في كل الأزمنة والأمكنة. ولكي نُخرج البشرية من ليل الحروب والدمار الدامس، يجدر بنا أن نتعلم كيف نحب الإنسان بما هو كائن يختلف عن الحيوان. يجب أن نزرع بذرة الحب في قلوبنا، ونسقيها من ماء صفي نقي، ونعتني بها، أيما عناية، حتى تغدو قلوبنا متفتحة كما تتفتح الورود الحمراء في الربيع الجميل، وتسع الجميع وتحبه.

لا نريد حبا صبيانيا أنانيا، حيث إننا لا نهدف من وراء المحب إلى إرضاء غرائزنا الشهوانية، بل إننا نريد حبا إنسانيا أسمى من الموانع الجنسية والعرقية.

هكذا كانت رؤية خليل للحب، فكان يرمي إلى الاعتناء به، باعتباره جنينا بدأ ينمو في قلبه؛ ومهما طال الحمل فإن مخاض الولادة لا بد أن ينهمر.

في هذه اللحظات، ينطق خليل بصوت خافت في إحدى الحدائق القريبة من الكلية؛ يخبر فاطمة بهذا الجنين الإنساني الكوني الذي لا يجري وراء مصلحة شهوانية، بل إنه كان يسعى نحو السلام والتعايش.

لقد قضى خليل، في الكلية، ثلاث سنوات مليئة بالمسرات والمضرات؛ فحدث ذات يوم أن رأى حربا ضارية بين طائفتين من الطلبة، تقتتلان وتتناطحان حتى بدأ الشك والحيرة يقفزان لذهنه متسائلا:

-" لم يتقاتل هؤلاء الطلبة؟ وما الذي أدى بهم إلى إهراق هذه الدماء؟ "

إنه لأمر محزن للغاية أن تجد الناس يتطاعنون بسبب لوثة الاختلاف. فكم من قتيل اختلف في فكرة مع قاتله؟ وكم من عالم عاش محنة فكرة تخالف العرف السياسي والديني والثقافي؟ وكم من محب أُعدم بسبب حبه الإنساني الكوني؟

لم يكن وجع الولادة وقفا على النساء وحدهن، وإنما هو وجع كوني يشترك فيه الجميع، رجالا ونساء؛ لأن الوجع أنواع كثيرة، منها: وجع الحياة الذي يعذبنا ويفقدنا صوابنا، ووجع الأفكار المزعجة بحيث تشعر اضطرابا بين عقلك وقلبك، وما تلبث الفكرة طويلا حتى تكسر أغلال العقل، لتخرج للوجود لعلها تحرك المياه الراكدة.

وهناك وجع الحب الذي أحسه خليل أثناء لقائه الخامس رفقة فاطمة. فكان وجهه يتصبب عرقا، ويداه ترتعشان كأنه اقترف خطيئة جنى بها على البشرية، حيث تراه يتململ في مكانه، وينظر هنا وهناك، لتأتي اللحظة التي يختفي فيها وجع الحياء والخجل، وتفك عقدة اللسان، حيث قال:

- " إنني أحبك يا فاطمة. ولكن هذا الحب عذبني كثيرا؛ لأنه لم يكن وليد القلب وحده، وإنما للعقل قسط وافر فيه. فأنا لم أحبك لأنك أنثى ظهرت عليها جميع نتوءات الأنوثة فحسب، وإنما أحببتك لأنك إنسان. ولأني أهيم في حب الإنسان أحببتك قلبا وعقلا. فالعقل هو مصدر الأفكار ومسكنها،

وإذا أفلح المرء في ترويض عقله على الحب الكوني، فإن الأفكار ستكون نابعة من عقل يؤمن بالاختلاف. أما القلبُ، فإنه مصدرُ الاعتقاد بهذه الأفكار. ولئن كان القلب ملاذ الحب الآمن، فإنه سيؤمن بتعدد المعتقد واختلافه من شخص لآخر.

يا فاطمة... إننا نعيش أزمة حب حقيقية. لقد جنت العلاقاتُ الإنسانيةُ ويلاتٍ كثيرةً جراء عاطفة القلب الذي أنتج حبا جاهزا. فكثر الطلاق في المجتمعات، وصار الجميع يجري وراء شهواته الحيوانية. فهو لم يعد يطمئن للعش الزوجي، وإنما يسعى إلى التلذذ بهذه الأكلة السريعة العابرة. لذا، فإنني أهديك هذا المبدأ الإنساني الكوني الذي أؤمن به، ومستعد للموت في سبيله ".

كان خليل يرى الحب مبدأ أسمى. لكن، هل المرأة تؤمن بهذا المبدإ؟

عرفت المرأة بالغيرة. وسبب هذه الآفة ذات الوجهين، هو كون المرأة تحب التملك والسيطرة على قلب من تحب.

إن الحب ملك للمرأة، وبالتالي فهي لا تقبل أن يشاركها فيه أي كائن بشري؛ فهي إن أحبت شخصا صارت تراقبه ليل نهار، وترصد حركاته وسكناته. لهذا الأمر اختصت المرأة بالغيرة التي تختلف من أزمنة وأمكنة إلى أخرى اختلافا في الدرجة فقط لا في النوع. بيد أن الرجل يغار أيضا، لذا فإن الاختلاف في الغيرة بين الرجال والنساء هو اختلاف من حيث الدرجةُ لا النوع؛ لأن غيرة النساء تفوق كثيرا غيرة الرجال بدرجات في كل زمان ومكان.

لم يكن بمقدور فاطمة أن ترد على كلام الشاب إلا بالكلمة نفسها، حيث قالت:

- " إنني أحبك أيضا. حتى وإن التقينا حديثا، فإنني ظللت طوال سنوات أسقي هذه الزهرة بدم قلبي ونفسي، ولم أفلح في التخلي عنها بعد محاولات فاشلة للحديث معك. إنني أحبك وحدك دون غيرك، ولا أريد أيا كان أن يأخذ مني هذا الحب ".

- " الحب ليس ملكا لنا يا فاطمة، بل إنه قيمة إنسانية تختلف من مجتمع لآخر، في الطريقة التي يُعبَّر بها عنه، وفي كيفية تنزيله من عليائه العاطفي إلى الممارسات الاجتماعية داخل الحياة العامة.

إنني أحب الجميع وأنت واحدة منه، ولكنك أقرب إلى قلبي في الإحساس والكينونة، وإن بيتا واحدا سيجمعنا معا، لنعتني بهذا المبدإ، وندافع عنه ما دمنا على وجه البسيطة أحياء. إن لكل نبي رسالةً يا فاطمة، ولا تخلو رسالة أي نبي من الحب، أما نحن فإن رسالتنا هي أن ننشد الحب إلى آخر نفَس في الحياة ".

- " ألا تغار إن أحببت رجلا آخر، وتقاسمت الحب الذي أحسه تجاهك معه؟ ".

- " ما دام الحب مبدأ أساسا في الحياة، فإننا سنلتزم به، وحسبنا أن ننظر للآخرين نظرة حب، رجالا كانوا أو نساء، ونعاملهم بهذا الأساس.

- انظري إلى الطيور كيف تحلق في السماء حرة طليقة؛ فهي تشترك في السعي نحو قوت يومها، ولكن كل طائر يعود إلى فراخه ليطعمهم. وهذا الطعام فيه نطفة حب وتعاون بين الجميع في البحث عنه. فما دمت تحبينني

باعتباري إنسانا، فإنك ستعاملين الآخرين به أيضا. فقلبك كفيل ليضيء طريق البشرية كافة؛ لأنها ودّعت الحب جراء سعيها الدؤوب وراء الماديات، وتخلت بذلك عن الروحانيات ".

لقد أضحى إنسان هذا الزمان ماديا؛ فهو لا يرى في الأنثى إلا الجانب المادي المتمثل في شهوات الجسد بكل تجلياته ومكوناته.

الحياة مليئة بالتجارب، وكل تجربة تجعل منا إنسانا آخر كأننا لعبة في أياديها. فكانت تجربة الحب واحدة من تجارب خليل في المدينة التي تضم العجائب والغرائب أحيانا، والمفاجآت في أحيان أخرى. لم يسبق لخليل أن صارح شخصا بحبه الكوني للإنسان في كل زمان ومكان. إنه حب كبير على أن تحتفظ به فاطمة وتظل ملتزمة به مدة من الزمان. فكثرت اللقاءات بينها وبين خليل، لدرجة يستحيل معها أن يفكر أحدهما في العيش في غياب الآخر. إنهما دخلا في سكرة الموت، وانصهرا في شخصيهما.

إن الحب الأول تجربة تحفر في الذاكرة، ويصعب علينا أن ننساها أو نتناساها حتى وإن وجدنا البديل. وفي مثل هذه الحال، يصدق علينا قول الشاعر العربي القديم:

"نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ما الحب إلا للحبيب الأول

إننا نودِع كل ما في قلوبنا لأول شخص نقع في خيوطه العنكبوتية. بيد أن المبدأ صعب للغاية؛ فلئن كان الحب مبدأ، وكان المحب مستعدا للموت حفاظا على هذا المبدإ، فإن المحبوب قد لا يكون أهلا لهذه التضحية، وقد لا يصمد أمامها طويلا.

حدث ذات صباح أن كان خليل في طريقه إلى الكلية. وعلى حين غرة، ترمق عيناه فتاة تجلس بالقرب من شاب على كرسي خشبي في الشارع، فأخذ الشك يذب في نفسه. ثم اقترب منهما اقترابا، فكانت الصدمة القاسية، هي رؤية فاطمة تبتسم لهذا الشاب أحيانا، وتقبله أحيانا أخرى. وهو بدوره لم يظل مكتوف الأيدي، وإنما صار يسرح بيده الشيطانية في مناطق حساسة من جسدها، يصول ويجول بين هضابها حينا، ويقف عند أرض بطحاء حينا آخر.

لم يكن هذا الأمر من صميم المبدإ الذي يدعو إليه خليلُ فاطمة، بل إن هذا يدخل ضمن الحب الشهواني الحيواني العابر.

إننا لا نستطيع الثبات على المبادئ الكبرى، وهذا شيء مشترك بين الجميع: فالناس هم الناس في كل زمان ومكان.

لقد كانت فاطمة تبحث عن شخص يداعب جسدها الناعم المختفي بين ثنايا ثوب فضفاض. إنها كأي طالبة في الكلية، تعيش رفقة صويحباتها اللائي يتفاخرن بالأوقات التي يقضينها مع عشاقهن، والهدايا التي تصب فوق أجسادهن بين الفينة والأخرى.

إن المرأة ميالة نحو الأشياء المغرية. فهي تكاد تذوب بين العطايا التي يتقدم بها العشاق لجسدها، لذلك، فهي أبعد من أن تلتزم بالمبادئ الكبرى. لكن النساء يختلفن في الزمان والمكان، وبحسب الظروف الاجتماعية والاقتصادية والثقافية. فالتاريخ يخبرنا عن نساء ظللن محافظات على مبادئهن الكبرى إلى آخر نفس في حياتهن، غير أنهن قليلات، وفي مثل هذه الحال لا يصلح التعميم أبدا.

رجع خليل القهقرى، ثم ظل جامدا في مكانه ينظر من قريب، فترقرقت دمعة ساخنة من عينيه، وبدأ الحزن يرمي بسهامه في قلبه. ثم تساءل عن الأسباب التي تجعل البشر يتخلفون عن مبادئهم، ويتوارون عن القيم الإنسانية الكبرى، فتراهم يركضون وراء مصالحهم المادية العرضية.

وفي هذه الأجواء الكئيبة التي تملأها الحسرة وخيبة الأمل في البشر، تعود به الذاكرة إلى القرية من جديد، فشرع يقارن بين المدن والقرى.

يقول خليل في سبيل هذه المقارنة:

" إن القرى أكثر حرصا على القيم من المدن، ربما لأنها بعيدة عن الحضارة وقريبة من البداوة في كل الأزمنة والأمكنة المتأخرة ".

وفي هذه العودة إلى الوراء، كان خليل يجمع قواه من جديد، ويرى أن انتصار الأشخاص ليس انتصارا، بل إن الانتصار الحقيقي هو انتصار المبدإ على حساب المصالح الشخصية المادية.

إنه يدعو إلى الثورة على الماديات، ويسعى إلى العودة للجانب المشرق في الإنسان؛ الجانب الروحي الذي قلما نعثر على من يدعون إليه في زماننا هذا. إننا نحتاج إلى عقل سقراطي كوني يسع الجميع بأفكاره ومعتقداته، وإلى حب صوفي يطمح إلى الكونية، ولا يقف عند حدود جغرافية معينة لا يتجاوزها.

إننا في حاجة إلى الوفاء لهذا المطلب الإنساني الأسمى؛ لأن التخلي عن الغريزة وحب السيطرة على الإنسان، والتحلي بالحب الإلهي الإنساني الكوني، كفيلان بأن يجعلا الحقيقة الكبرى تتجلى أمام البشرية، وهذه

الحقيقة المنشودة هي السلام العالمي الكوني، وما ينتج عنه من تعايش وتآزر وتآخي.

إن اختلاف أمتي رحمة، كما أن اختلاف البشرية، في كل زمان ومكان، نعمة تحتاج إلى سبل تدبير مفعمة بالحب الكوني، لا الحب الشهواني الحيواني العابر.

هكذا انتهى المخاض العسير الذي عايشه خليل بدمعة ساخنة تنم عن خيبة الأمل، وابتسامة توحي بأمل الخير في الإنسان رغم تكوينه المتناقض بين الشر والخير.

****

دعوة إلى التعايش

الحياة قصيرة جدا. ومهما طال بنا المقام، فإن هناك يوما سنغادر فيه الحياة بدون تأشيرة للعبور. سنرحل في صمت كما ترحل الطيور في كل شتاء، فنذهب إلى الجنة التي يتشوق إليها الناس في كل زمان ومكان. لهذا الغرض، لا يجدر بنا أن نضيع الحياة رغم قصرها في ما لا ينفع، لكنه يضرنا ضررا كبيرا.

الحياة ليست فترةً زمنيةً للتحارب والتطاحن، وإنما هي مرحلة التعايش والتسامح. كثيرا ما دعت الديانات التوحيدية إلى التعايش ونبذ العنف والكره بين البشر، إلا أننا ما زلنا نتجرع ويلات غياب التسامح والتعايش بين الشعوب والأمم في كل زمان ومكان. فكم من أرواح حصدت بسبب غياب التعايش، وكم من دماء أهرقت في ليال مظلمة، وكم من أطفال شردوا بعد صرخة مدوية في السماء الكئيبة. إننا نعاني الأمرين جراء غياب القيم والمبادئ الإنسانية الكبرى.

والحياة البشرية، في القديم والآن، كانت وما تزال في حاجة إلى قيمتين إنسانيتين لينتهي ليل حروبها، وتطوى صفحاته طيّ السجل. وهاتان القيمتان هما:

الحب الإنساني الكوني الذي ننشده في كل الأمكنة والأزمنة، والذي لا يعير اهتماما كبيرا للحدود الجغرافية، ولا الزمانية والمكانية. ثم التعايشُ باعتباره قيمةً إنسانيةً سامية، لا تعترض سبيلَها أيُّ حدود أو موانع معينة، بل إنها تقفز على اختلاف اللون والجنس والثقافة واللغة.

ذات صباح أشرقت الشمس على القرية فملأت أرجاءها ضياء ونورا، فاستيقظ السكان يسعون في أرض الله الواسعة. لقد كان يوسف، واحدا من بين هؤلاء الذين يسعون طلبا للرزق. كان شابا في مقتبل العمر يطل على الثلاثين، له قامة متوسطة، ووجه دائري وعينان واسعتان. أما لونه، فقد كان ميالا نحو السمرة التي ورثها عن والده الذي ولد وشب في القرية. فمن عادة هذا الشاب أن ينام حتى الظهيرة؛ لأنه، وكغيره من شباب القرية، ليست له وظيفة قارة يشغل بها نفسه بعدما قضى سنوات في الدراسة العليا، وإنما كان يطلب قوت يومه في العمل بحقول مترفي القرية؛ لأن لهم أراضٍ شاسعة. لذا كانوا يحتاجون دوما إلى اليد العاملة التي تبحث عن دريهمات، تدفع بها عاصفة الجوع، وتحارب الفاقة والعوز اللذين ينخران جسدها.

استيقظ يوسف باكرا، ثم توضأ وصلى ما شاء الله له أن يصلي. فأتت والدته تخاطبه قائلة:

- " تقبل الله منك صلاتك يا يوسف. لقد ذهب والدك إلى السوق باكرا، وطلب مني أن أخبرك بالذهاب إلى الوادي، لتحضر بعض الحطب بعدما تتناول فطورك.

- إني أشعر بتعب شديد يا أماه. ليس في استطاعتي القيام بهذا العمل اليوم، فهلا تركتم الأمر إلى غد؟ ".

لم تقبلِ الأم برد ولدها، ما جعلها تفتح عليه باب العتاب على مصراعيه قائلة:

- " يا للعجب، لمَ مرضت اليوم بالذات؟ ألم تكن كالثور أمس حيث تنام حتى الظهيرة، ثم تصرخ في وجوهنا إن لم تجد الفطور؟

انهض أيها المتكاسل لتقوم بما أوصى به والدك. انهض كي ترى أترابك كيف يسعون نحو رزقهم صباحا ".

هكذا استمرت الأم تصبّ جام غضبها وعتابها على ابنها. لقد شعر بالحمى تسري في جسده بحيث لم يستطع تناول الفطور، وبالكاد استطاع الوقوف على قدميه، ثم ذهب إلى مربض الحمار، فأخذ العربة يجرها نحو حماره.

اتجه يوسف صوب الوادي والتعب ينخر قواه. فلما بلغ المكان، شرع يقطع أغصان الأشجار اليابسة. وعلى حين غرة، لمح أشخاصا يقتربون منه شيئا فشيئا.

كان هؤلاء الأشخاصُ غرباءَ في القرية؛ لأنهم يحملون حقائب على أكتافهم، ويمشون دون أن يهتدوا إلى طريق معين، ولما وصلوا عنده نطق أحدهم قائلا:

- " السلام عليكم. إننا أتينا ضيوفا على القرية، جئنا من المدينة سعيا لقضاء العطلة الصيفية هنا، فهلا أخبرتنا عن مكان نروح إليه لنستأجره للإقامة؟ ".

استغرب الشاب حين رأى هؤلاء الأشخاص؛ لأن القرية لم تستقبل سياحا في ما مضى، وهذا ما يعد استثناء بالنسبة إليه. فهو ولد ونشأ في القرية، فخبر تقاليدها ونظرتها للوافدين عليها؛ فالسكان لا يكرهون الوافدين، وإنما يخشون ثقافتهم التي كثيرا ما اشمأزوا ونفروا منها. لأنهم كانوا

يشاهدون الأفلام في التلفاز، ويرون تفسخ القيم الذي تنعم فيه المدن، لذا اكتفى بالرد قائلا:

- " وعليكم السلام. لكننا لم يسبق أن رأينا سياحا في القرية، فنحن نعيش هنا على بساطتنا وعفويتنا، كما أن قريتنا لا تتوفر على مقومات طبيعية وثقافية وحضارية تجذب الزائرين إليها، فلمَ اخترتم هذه القرية بالذات؟

- صحيح أن القرية تعيش على البساطة والعفوية، ولكنها تتميز بالهدوء والأمن. لكننا تعبنا من ضوضاء المدينة؛ لذلك ارتأينا زيارة هذه القرية والتعرف على تقاليدها ونظمها الثقافية.

لقد سمعنا أن السكان في القرى كرماء، ولا يبخلون على ضيوفهم، ولا على أبناء السبيل، أليس كذلك؟ ".

عُرِفَ سكان القرى بالجود والكرم رغم زهدهم وتقشفهم في الحياة، إلا أنهم كانوا كرماء. إذ تراهم يطعمون الطعام ويعتنون بابن السبيل. لهذا، لم يجد يوسف بدا من الاعتراف بهذا الأمر، ثم شرع يقول:

- " بلى. نحن لا نطرد ضيوفنا، فهلم معي إلى بيتنا، وهنالك سنتدبر أمركم".

امتطى هؤلاء الأشخاص العربة، ثم اتجهوا رفقة يوسف نحو البيت، إلا أنه لم يعد وهو يحمل حطبا، بل عاد والعربةُ ممتلئةٌ بالأشخاص الغرباء.

فلما وصل الجميع البيت، اصطحبهم يوسف إلى المكان المخصص لاستقبال الضيوف، ثم ذهب عند والدته والخوف يملأ قلبه:

- " أماه، لقد عدت من الوادي، لكنني لم أحضرِ الحطب كما طلبت مني؟"

تجهم وجه الأم كثيرا، ثم طفقت تصرخ في وجهه:

- " لم عدت الآن؟ يا لك من فاشل، حتى الحطب لم تفلح في إحضاره. قل لي في ما ستفيدنا أيها الفاشل؟

- لقد حدث معي أمر لم يكن في الحسبان. فبينما وأنا غارق في قطع الحطب، أتاني أشخاص يطلبون مني المساعدة؛ لأنهم يقولون إنهم غرباء أتوا من المدينة، فاصطحبتهم معي إلى الدار حتى يقضوا معنا بعض الأيام".

أخذت الحيرة تصول وتجول في نفس الأم، ثم توجهت رفقة يوسف نحو مكان الضيافة تسترق النظر. وما لفت نظرها وهيج نفسها، هو وجود فتاة تبلغ العشرين من عمرها، لها شعر ذهبي، وعينان زرقاوان، وسط هؤلاء الشباب. وهذا ما تراه الأم تفسخا وقلة الحياء والحشمة؛ لأن الفتيات عندهم لا يخالطن الرجال.

لم تكن الأم المسكينة لتعرف أن تلك الفتاة دخلت قلب ابنها بدون إذن منه، كما أنها ذاتُ جنسيةٍ غربيةٍ أتت إلى المغرب قصد السياحة، فالتقت بهؤلاء الشباب، ثم قرروا زيارة القرية.

ظل الضيوف قابعين في مكانهم، يتأملون في الطريقة التي بُني بها المكان، والزخارفِ والنقوشِ التي تزينُهُ ، إلى أن أحضر لهم يوسف الطعام، فأكلوا حتى امتلأت بطونهم امتلاء.

لقد تمكن الشاب من إقناع والدته بأن يظلّ هؤلاءِ الضيوفُ أياما عندهم، ريثما يجدون مكانا للإقامة. كذلك شاء الله أن يفعل، فظل الضيوفُ مدةً طويلةً في عقر الدار؛ فكانوا يغادرون البيت صباحا، فيظلون يسرحون

ويمرحون في القرية، ثم يعودون وقت الأكل، وهكذا طاب لهمُ المقامُ هنالك.

في هذه الأثناء، ازداد تعلق يوسف بهذه الفتاة الأجنبية؛ لأنهما كانا يتبادلان النظراتِ التي تحمل ألوفَ الكلماتِ يَعْجزُ اللسان عن البوح بها. ومن تلك النظرات، استمر الوضع على ما هو عليه، حتى سمع الشابُّ بأن الضيوفَ سيغادرون القريةَ بعد يومين، فقرر أن يُفاتحَ والدتَهُ في أمرِ الزواجِ من هذه الفتاة، قائلا:

- " أُمَّاه، أعتقد أن هؤلاءِ الأشخاصَ طيبون كثيرا؛ لأنهم قضوا عندنا أياما طوالا حتى ألفناهم وألفونا ".

فهمت الأم أن من وراء هذا الكلام فعلا معينا، لذا رَدّتْ قائلة:

- " صحيح أنهم طيبون، لكنني لم أطمئن لاختلاط تلك الفتاة المتبرجة معهم.

- إنها فتاةٌ أجنبيةٌ يا أماه، تزور المغربَ للمرة الأولى، فأُعجبت بهدوءِ القريةِ أكثرَ مِنْ ضوضاء المدينة... إني معجبٌ بهذه الفتاة كثيرا؛ لأن لها جمالا وأخلاقا حسنة ".

كان هذا الكلامُ كفيلا بأن يثيرَ غضبَ الأمِّ التي ترد عليه، والغضبُ يطفو على وجهِهَا المتجعد:

- " ماذا تقول يا يوسف؟ كيف تريد الزواجَ من فتاة غير مسلمة؟ هل فقدتّ عقلَك أيها المتهور؟

لكنني سأترك الأمر لوالدك، لأنكَ تماديتَ في جنونك كثيرا هذه الأيام ".

لم يكن للوالدين أن يوافقا على هذا الزواج؛ لأنهما كانا ينظران لغير المسلمين نظرةً شزراءَ تنم عن الحقد والكره المبالغ فيهما، بدعوى أن هؤلاءِ الأشخاصَ غير المسلمين كافرون، وهذا ما لا يستسيغه يوسف أبدا.

لقد تعلم يوسفُ في المدرسة أنْ لاَ اختلاف بين يهودي ومسيحي ومسلم، لأنه يرى أن أصل هذه الديانات السماوية واحد، وهو الله تعالى. ولكنّ طُرقَ ممارسة هذه العبادات وتعاليمَها تختلف من ديانة إلى أخرى.

كان الشاب يعرف جيدا أن موسى وعيسى، عليهما السلام، ومحمدا صلى الله عليه وسلم، كلهم أنبياءُ مرسلون من الله، ويحملون الدعوةَ نفسَها: وهي توحيد العبادة لله، وهذا ما تختلف الأديان في ممارسته والتعبير عنه.

هكذا، ظل يوسف يجادل والديه جدالا لا طائل منه؛ لأنهما كانا يتمتعان بقدر لا بأس به من الأمية. لهذا كانا، وكغيرهم من سكان القرية، يجهلان هذه الحقيقةَ جهلا كبيرا؛ وهي أنه يمكننا التعايشُ مع هؤلاءِ الأشخاصِ رغم اختلاف معتقداتهم وآرائهم، ما داموا قد بُعث فيهم رسولٌ من الله تعالى.

كانت هذه نظرةَ يوسفَ إلى الديانات التوحيدية، حيث يقول:

- " أنا لا أرى عيبا في الزواج من هذه الفتاة المسيحية. فما دمت معجبا بأخلاقها، وما تتمتع به من قيم إنسانية سامية، فإنني مستعدٌّ للتضحية بالغالي والنفيس لأجلها.

لقد زارتِ المغربَ للمرة الأولى، واستطاعت أن تتعايش مع أولئك الشباب في المدينة. أما الآن، فإنها تعايشت معي في القرية رغم الأيام القليلة التي قضيناها ".

فبعدما صادف الشابُّ هذا الرفضَ المطلقَ من والديه، قرر التضحية برضاهما في سبيل الزواج من هذه الفتاة.

ذات ليلة، دخل يوسف غرفة الضيوف على حين غفْلة من الغارقين في سباتهم هنالك، ثم أيقظ الفتاة المسيحية. فهربا معا خارج القرية إلى حيث الفردوسُ المفقودُ الذي كثيرا ما حلم به يوسف منذ أن أنهى دراسته، تاركا والديه يبكيان حظَّهما المشؤومَ في القرية النائية.

لم يعرفِ الوالدان المكانَ الذي رحل إليه يوسف، لكنهما يعرفان أنه غادر القرية، ولن يعود إليهما مجددا؛ لأنهما يعرفان أن قصة الفردوس المفقود ملأت ذهنَ يوسفَ منذ مدة. حيث ظل يردد أنه سيغادر الوطن مرة واحدة، وسيذهب إلى حيث السعادةُ والمال. ليس يوسف شاذا في هذا الحلم، وإنما كلُّ شباب القرية يشتركون معه في ذلك؛ لأنهم ينتظرون فقط، فتاةً أجنبيةً تنتشلهم من فقرهمُ المدقع. ولكن الشاب يخالفهم في أمر؛ وهو أنه كان يرى أن التعايش مع الآخرين هو الباعث على النعيم في الأرض قبل الآخرة، وهكذا تحقق حلمه أخيرا، واستطاع الفرار من قريته إلى حيث شاء اللهُ له أن يذهب.

****

فاظفر بذات الدين تربت يداك

الحياة عبارة عن أيام معدودات، يضع فيها الناس أهدافا معينة، يجدون ويكدون في سبيل تحقيقها. لذلك، فإنهم ملزمون بالجري وراءها مهما كلفهمُ الأمر من معاناة نفسية وجسدية، فالإنسان بدون أهداف يعد حالة شاذة في الجامعة البشرية، والشاذ لا يقاس عليه.

فمن بين الأهداف التي يسعى الشباب نحوها، هي وظيفة قارة. وبعدما يصل إلى ما يرمي إليه، تأتي اللحظة التي يبحث فيها عن شريك العمر. وهذه اللحظة أصعب مرحلة في حياة الشباب في كل الأزمنة والأمكنة؛ فهم يطمحون إلى العثور على الزوجة المناسبة التي تتوفر على مجموعة من الشروط والمواصفات المعقدة والشاذة. بعد العمل، تأتي لحظة الزواج، ولأن الأمر يعد صعبا في زماننا هذا، فإن هنالك شروطا شاذةً يصعب أن يجدها المرء في شريك الحياة الزوجية.

يقول الجد:

- " إن الزواج ديدن الحياة، ولولاه لما كنا موجودين الآن. لهذا فإن حسن اختيار المرأة الصالحة الطيبة هو سبيل الفلاح والسعادة، والشاب بدون زواج كالنخلة بدون شتائل، إن يبس قلبها سقطت مرة واحدة ".

تقول الجدة:

- " الحياة قصيرة، والشاب بدون زواج عالةٌ على الناس. وخيرُ وقت للزواج هو الذي يتم في حياة الوالدين، فلقد مر علينا زمن طويل لم نفرح

بعرس شاب وشابة من أبنائنا. أما صلاح المرأة فمنبعه صلاح أهلها وحسن تربيتهم لها ".

يقول الأب:

- " إن الزواج عملٌ صالحٌ ونافعٌ للمرء، ومن فرّ إليه فقد هرب للطاعة. وعماد البيت هو المرأة الصالحة ذات حسب ونسب عريقين، ولها قدر كبير من الحشمة والحياء ".

تقول الأم:

- " إن تمامَ الرجولة الزواجُ، وهذا الأخير هو الظفر بذات عقل وحلم؛ الفتاة التي تخدم زوجها وأهله دون أن تشتكي من الآلام والأتعاب ".

أما الابن، فإنه اكتفى بالصمت والإنصات لآراء الأهل بحكمة بالغة؛ لأنه يحتاج إلى نصائحَ ترشده لاختيار زوجه. لذا قرر أن يدلي بدلوه في هذا المِراء، فانطلق يقول:

- " الزواج طاعة وتمام للدين. وهو الرابطة الإنسانية التي تجمع بين شخصين ينصهران في شخصيهما، ويتلاحمان في السراء والضراء، بالخضوع لميثاق شرعي يحفظ حرمة المجتمع، وتقاليده وقيمه الاجتماعية ونظمه الثقافية. لذا، فإنني عزمت على الزواج لكنني لا أرى وجودا لهذه الفتاة التي تتصف بهذه المواصفات، والسمات التي أدليتم بها. فأنتم تتحدثون عن فتاة لا وجود لها على أرض الواقع؛ فإما أن تجد فتاة جميلة في المظهر، لكنها لا ترقب حرمة المجتمع في تصرفاتها، وإما أن تكون جميلة السريرة لكنها سيئة المظهر والهيئة، وقد تعثر على من لا تتوفر على أي صفة مما تذكرون وتزعمون، فماذا تأمرون؟ ".

لم يمر كلام الابن في حال هادئة لدى النفوس، ما جعل الجد يحمل نفسه، ثم يعقب قائلا:

- " إن هنالك فتياتٍ كثيراتٍ في القرية. والحاج محمد صديقنا منذ زمان، لم نر فيه عيبا أو ما يناقض الأخلاق، فاختر واحدةً من بناته، ونحن ما علينا إلا أن نقوم على الأمر حتى النهاية ".

أما الأب، فإنه اكتفى بالمسح على لحيته المتشعثة، وملامح الغضب تطفو على وجهه. كان ينتظر من ابنه أن يوافق على كلام جده دون تردد، فشرع يحدثه عن قصة زواجه قائلا:

- " إنكم تعقدون الأمر رغم بساطته. ففي أيامنا نحن لم يكن الزواج يتم على هذه الشاكلة، وإنما كنا ننتظر الحول الذي يكثر فيه المطر وتخضر الأرض، فنكتفي، آنئذ، بالتلميح إلى آبائنا، وهم يفهمون ما نذهب إليه بما يصدر عنا من تصرفات. ثم تمر أيام معدودات فيأتي الوالد بخبر عن الزوجات اللائي تم اختيارهن، لتجدنا حينها ننتظر اللحظة التي نرى فيها نصيبنا من الحياة.

لقد كنت أنتظر وقتا طويلا جانب الوادي، حتى أرى والدتك رفقة صويحباتها يسقين في الوادي، ويملأن الجرات بالماء، ثم يشرعن في الغناء والدندنة. أما أنا فإنني أتسلل خفية بين الأشجار، ولا أكاد أرى من ملامحها إلا النزر القليل.

أنصت لكلام جدك، لأنه أفنى زهرة عمره في الحياة، وخبر خفاياها وتقلباتها ".

ففي هذه الأثناء التي ظل فيها الأب يسرد قصته مع ربيعة التي ظلت تتبسم أحيانا، وتطأطئ رأسها الكبيرة أحيانا أخرى، كان الابن غارقا في الضحك على هذه القصة الخالية من الرومانسية.

لقد ألفنا نحن الشباب، في عصرنا هذا، أن تكون قصص الحب مليئة بالرومانسية والمداعبة، وعذوبة الكلام وتنميقه وتزويقه. أما آباؤنا فإن لهم رأيا مختلفا، كما يقال إن لكل زمان أناسَه ونظمَه الخاصة.

لقد كان الآباء يضربون صفحا عن مساوئ الفتاة، فكان همهم الأكبر هو ترك حياة العزوبة، والظفر بفتاة تلبي لهم رغباتهم الجسدية وكل ما يتعلق بتدبير شئون البيت. لذا كانت وظيفة النساء في القرية، تقف عند الإنجاب والاعتناء بالزوج فقط. والتي أفلحت منهن في هذا الامتحان يشار إليها بالبنان من لدن زوجها وأهله، كما يضرب بها المثل في الفطنة والحذق. أما التي أخفقت في الأمر فإنها تعد عالة عليهم، فتراهم يتصيدون ويتحينون الفرص للإيقاع بها في بوتقة الطلاق. ويا ويل لمن كانت ضحيته؛ لأنه يعد كبيرة من الكبائر في ثقافة القرى. فالبنت التي طلقها زوجها لم تعد صالحة لشيء، لذلك تظل سجينة في بيت والدها حتى يأتي الله بأمره. والله المستعان على ما تصفون.

لكل هذه الأمور مجتمعة، كان الابن يبحث عن الفتاة التي ستفلح في الأدوار المنوطة بها، ولعل هذا ما جعله يتراجع عن رفضه لرأي جده، فقال لهم بعد طول تخمين:

- " لقد صدقت القول يا جدي، فهلا قصدتم بيته وطلبتم يد ابنته الصغرى؛ فإنني قد رأيتها على حين غفْلة منها، في عرس ابن عمي سعيد في السنة المنصرمة. لم تكنِ اللحظةُ ملائمةً للحديث معها، بل اكتفيت باستراق

النظر خفية نحوها، وأعتقد أنها الفتاة التي أبحث عنها منذ سنتين من حصولي على العمل ".

كان للحاج محمد ثلاث بنات، يحملن أخلاقا حسنة. وقد أتى أشخاص متعددون يطلبونهن منه، لكنه في كل مرة يأبى عن الموافقة لطلب هؤلاء الأشخاص؛ لأنه كان يشعر بإحساس وطيد يشدّه إليهن شدا. كيف لا وهو الذي تحمل عبء تربيتهن والاعتناء بهن. فلما أنجبت زوجتُه الضاويةُ ابنتَها الصغرى توفيت، فقطع وعدا على نفسه بأنْ لاَ يتزوج امرأة أخرى بعدها. لهذا نفض غبار الكسل عن نفسه، وتحمل متاعب بناته حتى صرن من أجمل بنات القرية؛ لأنهن لا يغادرن البيت حتى في المناسبات الكبرى، ولعل هذا ما جعل شباب القرية ينكبون على بيت الحاج في كل وقت وحين.

ابتسم الأهل بعدما وافق الابن على اقتراح الجد. ثم شرعوا في إعداد الأغراض التي سيأخذونها لبيت الفتاة، وهذه الأغراض هي: السكر والزيت فقط، وهذا هو النمط الذي دأب عليه الجميع في القرية.

ارتدى الجد جلبابه الأبيض الناصع، حيث كان يخبئه في صندوق كبير مع أشياءَ عتيقةٍ أخرى، كالخنجر والحقيبة الجلدية الصغيرة التي ورثها عن والده. ثم ارتدت الأم قفطانَها الفضفاض، ورمت عليه لحافَها الأسودَ الذي كاد يخفي القفطانَ المزركش. أما الأب، فإنه ارتدى جلبابَه ووضع عمامتَه الزرقاءَ فوق رأسه، ثم توجه الموكب نحو بيت الحاج محمد الذي يوجد في القرية عينها.

تسلل الأهلُ نحو مقصدهم خُفية. ولما وصلوا، طرقوا الباب فكلمتهم البنت البكر من وراء حجاب. لقد تعرفت عليهم من أصواتهم فردا فردا، لكنها

لم تفتح الباب وإنما اعتذرت منهم، ثم طلبت أن ينتظروا حتى تطلع والدها على الأمر.

كذلك فعلت البنت، ثم أتى والدها ففتح الباب على مصراعيه، والابتسامة تشع على وجهه: إنها لحظة لقائه مع صديقه الذي كان يراه في المسجد فقط، أما الآن فإنه قصد بيته، وهذا يعد احتراما وتقديرا له. فانطلق يصافح الجد والأب ويستقبلهم بحفاوة كبيرة.

دخل الجميعُ إلى عقر الدار، فأتى الحاج بأباريق الشاي وأطباق الحلوة المتنوعة، فمرت الأجواء بهيجة ملؤُها الفرحةُ والانشراح. وكما يقال إن المناسبة شرط، وهكذا تكلم الجد قائلا:

- " صديقي الحاج محمد، لم يكن مجيئنا إلى بيتك فعلا دون قصد أو غاية، وإنما أتينا لأجل عمل صالح، ولا نبغي من ورائه إلا توطيد العلاقة الحسنة والطيبة بيننا وبينكم. فما من وسيلة لتحقيق هذه الغاية النبيلة سوى طلب يد ابنتك الصغرى لابننا على سنة الله ورسوله، عسى أن يكون أمرنا خيرا ".

لم يأخذ الحاج مهلة للتفكير في كلام صديقه، ولا لاستشارة البنت في الأمر، والأخذ بناصية رأيها، بل إنه شرع يعقب:

- " لقد شرفتمونا بمجيئكم، وإننا لفخورون بصهر من طينتكم. ما بيدي حيلة سوى الموافقة على طلبكم الشريف، ونسأل الله أن يوفق بينهما للخير، بالمال والبنين إن شاء الله ".

هكذا تتم طقوس الخطبة في القرية، وهذه أدبياتها التي دأب عليها الجميع منذ سنوات طوال. إذ يذهب أهل الابن إلى بيت الفتاة، ولا يأتون إلا وهم

فرحون بموافقة أهلها. وغالبا ما يوافق الأهل بدون شروط معقدة تقف حجر عثرة في طريق المقبل على الزواج من ابنتهم، وهذه نقطة فاصلة بين القرى والمدن.

ففي المدينة، تقدم الفتاةُ مجموعةً من الشروط والمواصفات التي ينبغي أن تتواجد في الشاب. من بينها: أن يكون ذا وظيفة قارة، وأن يكون له بيت مستقل عن والديه، كما أنها تشترط ثمنَ المهر والمكانَ الذي ستقضي فيه شهر العسل معه. أما في القرية، فإن الفتاة لا تشترط شيئا لأنها تفوض أمرها لوالديها، فهما اللذان يعرفان مصلحتها في الحياة الزوجية. لذلك تراهم، وفي أحيان كثيرة، يوافقون على تزويجها من شخص تقدم والداه بذلك، بمجرد أن يسألوا عن سمعته وأخلاقه، لا عن ماله وعمله.

وبعد هذه الخطوة الأولية التي تعد حجرَ الأساس في بناء العش الزوجي لدى شباب القرية هنالك، تأتي مرحلة العرس التي تعد إشعارا بهذا الزواج بعدما كان الأمر سرا في بدايته.

عاد الأهل إلى البيت والفرحة تغمر قلوبهم. إنهم يهرولون لأجل مفاجأة الابن بهذا النبإ العظيم، فما إن اقتربوا من البيت حتى لمحوه ينتظرهم والحيرة تطفو على وجهه، فهتف الجد يقول:

- " هنيئا لك يا بني، إن الحاج محمدا قد استقبلنا بحفاوة، ووافق على الزواج من ابنته. لقد رزقك الله عائلةً عريقةً وذاتَ حسب ونسب، فاطمئن يا بني ".

انشرح صدر الابن، فظهرت الابتسامة على محياه، وما هي إلا أيامٌ معدوداتٌ حتى بدأ الجميع يجد ويكد بغية الإعداد والاستعداد للعرس. فظل

الابن أياما يستيقظ صباحا، ثم يحمل فأسه مُوَليا وجهه تجاه الوادي قصد قطع الحطب من الأشجار التي جفت أغصانها. أما الأب، فإنه بقي يجول ويصول بين بهائمه، يتخير عجلا سمينا له خوار، يسر الناظرين ويبهجهم حتى يذبحه في العرس.

أما الأم والجدة فإنهما انشغلتا بجمع القمح وطحنه. فضلا عن التوابل وبعض الأغراض الأخرى كالحناء، وأمور أخرى كثيرة: كأن تعمل النساء على نسج الأقمصة التي سيرتدينها في العرس.

انشغل الجميع في العمل الجماعي؛ لأنهم كانوا يملكون ابنا واحدا، لذلك ينبغي أن يكون عرسه مهيبا يتداوله الناس على الألسنة في كل زمان ومكان.

كان يومُ الأحد يومَ السوق الأسبوعي في القرية، وكان لزاما عليهم أن يذهبوا إليه لاقتناء كل المواد الغذائية من: سكر وشاي وزيت. فضلا عن الحلوى والفواكه الجافة، وكل ما سيحتاجونه في العرس.

لم تكن إعدادات العرس وقفا على أهل الابن فحسب، بل حتى أهل البنت مطالبون بالجد والكد من أجل عرس ابنتهم. لقد دأب الجميع هنالك، على أن لا يكون العرس جماعيا، وإنما يقوم أهل العروس بعرسهم داخل قريتهم، وأهل العريس كذلك، يقومون بالعرس داخل قريتهم.

مر وقت طويل على الأهالي، وهم دائبون في هذا الهم الكبير الذي سينفقون فيه كل ما اذخروه لسنين؛ لأنهم أضفوا على العرس قيمةً اجتماعيةً كبيرة، وهذا عكس المدن التي يكون العرس فيها عابرا، أي مجرد ليلة واحدة فقط، يجتمع فيها الأحباب والأقارب والأصدقاء، وما

يكاد ضوء الصبح ينجلي حتى ترى الجمع قد انفضّ وكل انتشر في الأرض.

فبعد الإعداد الدائب، آن الأوان للقيام بالعرس حيث ذُبحت الذبائح السمينة، ثم أكل الجميع وشرب لأيام، والتزم الأهالي بكل التقاليد والأعراف الخاصة بهم، كأن يذهب العريس وهو يمتطي حصانه إلى مكان يوجد بين نخيل كثيف، وفيه يوجد برج بني من طين قد أنهكته الأمطار الغزيرة التي تعاقبت عليه منذ القدم. ثم يحمل جرة طين فارغة، ويركض بحصانه وسط الجموع الغفيرة من سكان القرية، فيبعد منهم قليلا، ثم يكسر الجرة على وجه البسيطة من فوق حصانه. ولعل دلالة هذا الفعل الاجتماعي، هي كونه رمزا للرجولة والفحولة والقوة، فضلا عن تحمل جميع صعاب الحياة. كما أن هنالك تقليدا آخر، وهو وضع الحناء فوق رأس العريس، وبين أصابع يديه ورجليه، وبعد هذا، يرتدي سلهاما أسود، ويتحرف خنجرا وحقيبة جلدية صغيرة كان قد ورثهما عن أجداده، فضلا عن السيف الملفوف بالقماش.

مرت الأجواء مليئة بالأفراح، فهي تجسيد للحفاظ على التقاليد والأعراف التي ورثها سكان القرية عن السلف الصالح من الآباء والأجداد. ثم تأتي العروس في موكبها من بيت والدها، الحاج محمد، ترتدي لباسا أبيض فضفاضا، يحوي مجموعة من المزركشات والزخارف التي تدل على تقاليد المنطقة، كما أن لها الكثير من الحلي والمجوهرات التي تتزين بها، فضلا عن الإكليل المنمق الذي تضعه فوق رأسها. والنساء يطوّقْنَها من كل صوب وحدب، والزغاريد تطرب الأسماع.

دخلت العروس بزينتها الغرفةَ المخصصةَ لها في بيت زوجها. وبعدما استقر بها المقام حيث دخلت، واستعادت أنفاسها الثقيلة التي تتراوح بين مد وجزر، أتى العريس والخوف يملأ قلبه، ليدخل على زوجه الذي سيراه للمرة الثانية، فسلم وتكلم بصوت خافت. ثم اقترب منها اقترابا، فمدّ يديه لرفع اللحاف الذي تضعه العروس فوق وجهها، وهو ثوب شفاف ذو لون أحمر. فسمع صوت والدته تصيح فوق رأسه قائلة:

- " انهض أيها المتكاسل. إن الشباب ينتظرونك أمام البيت حتى تذهبوا لحفر الساقية ".

فاستيقظ على حلم ممكن، لكنه لم يكتمل، والغضب قد أخذ منه كلّ مأخذ. فشرع يلعن حظّه الذي انتشل منه زوجه في ليلة بنائه المقدسة. ثم تمتم بكلام حفظه عن الفقيه في المسجد: " اظفر بذات الدين تربت يداك ".

****

وجع التراب

للإنسان علاقة وطيدة بالأرض، كتلك التي تربط بين الرضيع وأمه، بحيث يصعب معها الانفصال. وهذا شيء بديهي خاصة إذا علمنا أن الأرض هي الأم، أي الجامعة الإنسانية التي تضم الجميع على غرار اختلافاتهم. فالإنسان له مصدر أولي أساس هو الأرض، لأنه منها خلق وإليها سيعود، وفي بنيته التكوينية يحمل مكوناتها من تراب وماء، وهذا كفيل بأن يخلق الإنسانُ علاقةً حميميةً معها، لدرجة أنه يتصارع من أجلها. فليس صراع الإنسان في الحياة وقفا على صراعه مع الطبيعة من جهة، ولا على صراعه مع بني جلدته حول الأفكار والمعتقدات من جهة ثانية. بل إن هنالك صراعا بين بني آدم حول الأرض. وحبٌّ تملكها مكونٌ من مكونات الكائن البشري في علاقته بها.

هكذا استيقظ الجميع على حين غرة، ولكل منهم رأي خاص به، يصدر عن غريزة الحب التي تشدّه بالأرض. ثم اجتمع الجمع المبارك في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، فظلوا يتجادلون ويتمارون فيما بينهم. يأخذون ويردون في قضية تعد عندهم كبيرة وذات أهمية بما كان ألا وهي أرض الجموع. هذه الأرض التي تقع بين قريتين منفصلتين رغم أنهما تنتميان للرقعة الجغرافية نفسها، إلا أن ثمة اختلافا بين سكانهما من حيث المعتقد الذي كونوه حول هذه الأرض.

كانت هذه الأرضُ شاسعة جدا، لا حرث بها ولا زرع، بل هي أرض مهجورة تضم الحصى الكثيف على أديمها. لكن باطنها غني بمجموعة

من النفائس الثمينة، وعلى رأسها الماء. لقد أقر الجميع وأجمع على أن في هذه الأرض وجودا لماء عذب فرات، يستأهل أن يحارب لأجله المرء إلى أخر نفس.

لكل هذا تعددت الأسباب واختلفت الغايات التي جعلت كلتا القريتين تسعيان إلى تملك هذه الأرض.

يقول شيخ القبيلة:

- " إن الأرض مهمة لنا، خصوصا أن الماء بدأ يقل حيث نسكن. وأولئك المتغطرسون لا يودون أن يحملوا أيديهم من أرضنا. فكم أخبرنا القائد بأن الأرض لنا، ورثناها عن أجدادنا منذ سنين طويلة، وما قام به أهل قبيلة ولاد حدو يعد انتهاكا للحرمات، وتجاوزا للحدود، ومن تعدى حدود الله فقد ظلم نفسه ".

أنهى الشيخ كلامه والغضب يطفو على وجهه الدائري، بحيث ترى عينيه جاحظتين، وتصدران نظرة شزراء، تنم عن الحقد الذي يكنه إلى القبيلة التي تنازعهم على هذه الأرض المباركة. ثم أتى دور الملإ من أهل القبيلة، وهؤلاء هم الناطقون الرسميون بلسان السواد الأعظم من الناس، فشرع أحدهم يقول:

- " إن كلام الشيخ صحيح، وتلك الأرض تعد إرثنا الذي ورثناه من زمان. وقد أخبرتكم منذ سنين، إن كنتم تتذكرون، أنه يجب أن نذهب عند مصالح العقار في المدينة، ونحفّظ أرضنا كي لا يزحف إليها الأعداء المجاورون، فقابلتم كلامي بالعزوف، ثم اكتفى كل منكم برفع عقيرته وهز كتفيه مهرولا غير مبال. أما الآن، فإن القضية قد اشتعلت نارها، فإما أن نحارب

من أجل تحرير أرضنا، وإما أن نركن إلى الصمت والإطراق، فنسلم الأرض للعدو طوعا أو كرها.

لقد بلغني أيها الشيوخ المحترمون، أن هنالك محاولاتٍ متعاقبةً لأولاد حدو، بغية البحث عن الأماكن التي تحتوي الماء بوفرة، حتى يباشروا في حفر الآبار هنالك. ومنذ أن سمعت هذا الخبر المحزن، فر النوم من عيني، وبدأت الشكوك والظنون تأخذ من نفسي كل مأخذ. لهذا، يجب أن نفكر في الطريقة التي يمكننا، وبوساطتها، تحرير هذه الأرض المباركة المقدسة ".

كان الجميع يستشعر وجع التراب يسري في نفسه كيفما شاء، إنه يعلو حينا ثم يمضي جفاء: يعلو فيجعل المرء مستعدا للفداء والتضحية لأجل حفنة تراب، ويمضي فترى المرء يركن إلى الخنوع والخضوع.

أمام هذه الظروف الحاسمة، انقسم الملأ قسمين؛ أولهما ظل ينشد الدعوة إلى تحرير الأرض، ويرى في القبيلة الأخرى، مُستعمِرا مستبدا تجب محاربتُهُ. وثانيهما اكتفى بالخنوع والخضوع، وظل يردد شعاره الرنان: " الدنيا عجوز فاتنة ومغرية، لكنها فانية، ومن ثمة لا مجال للحرب وإهراق الدماء ".

لكن الجمع خلص إلى كلمة واحدة، مفادها الذهاب لتلكمُ الأرض حيث ستقرع طبول الحرب حتى الموت. إنه أمر سيدبر بليل بحيث إن الجميع ظل يردد: يجب أن يأخذ كل واحد سلاحا يحارب به. لكنّ هذا السلاح لا يعدو كونه العصي والأداةَ التي يوظفونها لقطع جريد النخيل، وتسمى "الزبارة" لأنها تستعمل في زبر جريده، فتراه ينمو حتى يكاد يعانق السماء شموخا.

امتطى الجميع شاحنات كبيرات، ثم ولوا وجوههم تجاه الأرض المباركة حيث سيلتقون قبيلة ولاد حدو. هكذا فعلوا في الصباح الباكر. لكن الآخرين ليسوا جاهلين بهذا الأمر، بل كانوا يعرفون قدوم أهل القبيلة، وهم أيضا، لم يبخلوا في إعداد العدة والعتاد لهذه المعركة.

التقى الجمعان في يوم عصيب، حيث ترى الطيور تحلق في الأعالي، والشمس الذهبية قد قر لها القرار فوق رؤوسهم، والوجوه كئيبة متجهمة تنظر تارة نحو العدو، ونحو السماء تارة أخرى، والأيادي المسلحة ترتعش. إنه ليوم عسير على الفريقين معا، فهما قد ودعا أبناءهما في القريتين، وكل واحد من الجمعين، قد أودع أخر قبلة وداع على جباه أبنائه وزوجته ووالديه إن بقوا أحياء يرزقون.

إن أمر الله لا تحده حدود، ولا تعترض طريقه أي وسيلة مهما بلغت قوتها. لقد ذهب أحد الشيوخ وطلوع الفجر نحو المركز، ثم أخبر القائد أن هنالك صراعا وتطاحنا سينشب بين القبيلتين حول أرض الجموع، فحمل القائد نفسه، وأتى على حين غرة إلى موقع الصراع، والجيوش تترجل شاحناتها، فشرع يخطب في الجمع الغفير قائلا:

- " أيها الجاهلون الأغبياء. بالله عليكم أين تركتم عقولكم؟ هل تسعون إلى الموت على الأرض؟ ألا تعلمون أن الله لا يقبل هذا الصراع؟

إن لهذه الأرض لتريخا طويلا. فأجدادكم قد تطاحنوا طمعا في الحصول عليها، حتى ظل كل واحد منهم يفتخر بتلكم المعارك افتخارا كبيرا. ثم إن كلا الفريقين يدعي أنه مالكها، وأن الصراع قد خمد أواره المؤجج. فها أنتم تنفخون على جمر هذه النار مجددا، وتسعون إلى تعميق الجروح

المندملة. فليعد كل فريق لقريته، ولينتظرِ القرارَ النهائيَّ لهذا المخاض العسير، لأن ثمة طرقا عديدةً يمكن اللجوء إليها لحل هذا النزاع ".

كان خطاب القائد بليغا، وقد سرى في النفوس سريانَ النار في الهشيم. ثم بدا على وجوه الجميع نوعٌ من الاطمئنان، فعاد كل فريق قاصدا قريته، والفرح يرفرف في قلبه ظنا منه أنه ربح القضية.

لقد عاد أهلُ القبيلة يسرحون ويمرحون، ولما يسألهم سائل:

- " ماذا فعلتم؟ وما النتيجة التي خلصتم إليها؟ ".

يكتفون بالسخرية منه، قائلين:

- " إن الأرض لنا، وهذا بادٍ على كلام القائد. لقد وعدنا بأنه سيرد إلينا أرضنا دون أن نهرق قطرةَ دم واحدة ".

هكذا كان خطاب الفريقين طوال سنين، حيث ظلا كلاهما يعيشان على بصيص الأمل، ويعتقدان أن أمر الصراع لن يعود مجددا، وأن هذه الليلة المدلجة الكئيبة ستتبدد وطلوع ضوء الفجر، وستطوى كطي السجل. بل ظل كل حزب بما لديهم فرحون فارهون.

مرت السنونُ راكضةً على هذا النزاع، ومات الأجداد على هذا الانتظار، لأنهم لم يعرفوا أن في الانتظار موتا رتيبا، وفقدانا للأمل. ثم أتى فجر الصراع يرتسم مجددا، ويضرب سهامه في كبد ليالي السنين الماضية المظلمة، ليحيا الصراع حول تلكم الأرض من جديد.

لكنّ شبابَ العصر مختلفون عن آبائهم وأجدادهم، لأن أولئك لهم قدر لا بأس به من العلم والوعي، وهؤلاء قد شبوا على الأمية وماتوا عليها، وشتان بين الزمنين، لذلك تغيرت أنماط الصراع.

لقدِ اجتمع شباب القبيلة، ثم تداولوا الأمر فيما بينهم، وحاولوا البحث عن سبل لتدبير الصراع بدل المشاركة فيه. نهض العربي الذي يبلغ من العمر الخامسة والعشرين، فشرع يقول:

- " أعتقد أن قضية هذه الأرض قد طال صراعها، ومنذ سنوات ونحن نرصدها. لقد عاش آباؤنا على الأمل، رحمة الله عليهم، دون أن نرى شيئا من وعود القواد الذين تعاقبوا على كرسي القيادة. لهذا، أرى أن البلسمَ الشافيَّ لهذه الجروح، القديمة والحديثة، هو فتح الحوار المشترك مع شباب قبيلة ولاد حدو، عسى أن نفلح في أمرنا هذا ".

أنهى الشاب كلامه الذي ينم عن وعيه بالحياة، وقيمة التواصل بين القرى المتخالفة قصد تدبير الخلافات. أما الآخرون، فإنهم اكتفوا برفع رؤوسهم بين الفينة والأخرى، ما يدل على أنهم موافقون على فكرة الحوار.

حاول الشباب إرسال رسالة إلى شباب القبيلة الأخرى. حيث كان الهدف منها هو تعويض التحارب والتطاحن بالحوار.

توصل شباب ولاد حدو بالرسالة، وقد كانوا يتمتعون بقدر من الوعي والمعرفة، لهذا وافقوا على اقتراح شباب القبيلة، فتم تحديد يوم لم يخالفه أحد الفريقين.

التقى الجمعان في مقر القبيلة. حيث ملئت الموائد بكل ما لذ وطاب من الأطعمة، فاجتمعوا على طعام واحد ومائدة واحدة، وهذا اللقاء يعد صلحا

أوليا بين الفريقين. ثم بدأ الحوار بين: العربي الذي كلفه شباب القبيلة بأن يتحدث باسمهم، وعيسى الذي اختاره شباب ولاد حدو لينطق باسمهم.

يقول العربي:

- " إن الصراع لا تجني منه البشريةُ غيرَ الويلات والخسائر البشرية والمادية. وخير سبيل نسلكه لتلافيه هو الحوار وتداول الأمر، ذلك مع استحضار المبدإ الإنساني الذي هو العدالة الاجتماعية.

أنتم تعرفون أن تلكم الأرض تضم مجموعة من الثروات الطبيعية. لذلك، فإن المبدأ يقضي بأن يتم توزيعها بالتساوي بين الجميع، ولكل هذه الأمور اجتمعنا اليوم، فانظروا ماذا تقترحون؟ ".

رد عيسى قائلا:

- " ما أحلمكم يا شباب أولاد عبو، وإن ما اقترحتموه لهو خير لنا ولكم. لكننا نرى أنه ما من سبيل يرضي القلوب، ويطفئ نيرانَ الطمع والجشع في المهج سوى توزيع الأرض على نصفين ".

هكذا كان اقتراح الفريقين، وكذلك تم فك النزاع بالسلم. يبدو أن توزيع الأرض هو الحل الوسط لتلافي الصراع والقتال، فاتفق الجمعان على توزيع الأرض شريطة أن تحصل كل قبيلة على الشطر القريب منها. ولحسن الحظ أن الأمور قد مرت على هذه الشاكلة. فنجح الشباب في طي صفحات هذه الليالي الدامسة؛ لأنهم كانوا يعرفون أن الأرض أمٌّ للجميع، ولا تقبل الدم ولا الغصب لأجل نيلها.

لقد تصارع الأجداد على تلكمُ الأرض منذ خمسين سنة وما يزيد، ثم لفتهم المنايا فوارهم الثرى، لكن الأرض المباركة بقيت مكانها راسخة. ولعل هذا الماضي الحزين، هو الذي جعل الشباب يلجئون إلى التواصل باعتباره سبيلا إنسانيا لفض النزاعات، وتجنب الحروب، والتئام الجروح، وسيادة العلاقات الإنسانية بين بني آدم، واليقين بأن هذه الأرض منها نخرج وإليها نرجع.

يا ويل لقبيلة اجتمع فيها أمران اثنان، هما الجهل، ووجع التراب.

أما الجهل، فإنه يعمي بصر وبصيرة المرء، ثم يجعله لا يرى طريقا للحصول على مبتغاه سوى الحرب والتطاحن وإهراق الدماء. وأما وجع التراب، فإنه حب الإنسان للأرض المفرط؛ فمنذ أن خلق الله الإنسانَ وهو يحس حنينا نحو المصدر الذي انحدر منه، فبقدر ما يشتاق إلى مهده الأصلي يزداد تلهفه لتملكه والسيطرة عليه.

على أن أمرا أساسا ينتج عن اجتماع هذين الداءين في جسد الآباء والأجداد، بحيث يفعلان بهم ما شاءا من حراب وعراك. فما من بلسم لتضميد هذه الجروح البشرية غير الركون إلى الحوار والتواصل الثقافيين الفكريين، وهذا هو ديدن الشباب الذي ضيعته الأمم والشعوب في وقتنا الراهن.

إن الأممَ والشعوبَ في كل الأزمنة والأمكنة، تحتاج، كلَّ الحاجة، إلى التواصل الثقافي والحوار المنفتح لتدبير الخلافات، وكذا التخلي عن أدران النفس من طمع وشجع. وخيرُ ما يقال هو استمرار الأمل في الكائن البشري، ولعل ربنا يفعل بعد ذلك أمرا.

أسطورة الولي الصالح

بزغ ضوء الصبح على بيوت القرية المتجاورة، وقد تزامن هذا البزوغ والانبثاق مع صياح الديك، فكان المنظر بهيجا، ثم ازدانت القرية جمالا بمناظر حقولها الخلابة. إذ إنك ترى النخيل الكثيف مخضرا بفعل قطرات الندى، والتي ظلت تقبل جريده الليل كله. إنه لمشهد يخلب النفوس وطلوع الشمس، وما يزيده جمالا هو استيقاظ السكان طلبا للرزق، وسعيا في أرض الله الواسعة.

في هذا المشهد البهي بآياته، والخلاب بنتوءاته الصباحية الجميلة، والمفرح المُهَجَ بنسيمه المعطر، استيقظت حليمة تفتش في الأواني، لأجل طهي الشربة التي تسمى في القرية ب" الحريرة " الصباحية، والتي تعد فطورا، إلى جانب التمر، مشتركا بين جميع السكان هنالك.

لقد كانت حليمة شديدة الحرص في حركاتها وسكناتها كي لا توقظ زوجها مبارك، والذي ظل غارقا في سباته لا ينوي على شيء؛ لأنه كان يشتغل في حقول الحاج عبد الله ليل نهار. ولما قلّ المطر في هذا الموسم، قلّ معه السعي الدؤوب في الأرض، فصار مبارك يقضي اليوم كله نائما في بهو داره، وأثناء الليل يخرج عند أصدقائه حيث يجتمعون في الساحة. إنهم مسامرون حيث يحتسون كؤوس الخمر المترعة، ثم يقرعون الطبول. ولما يقترب الفجر ينفضّ الجمع ويعود كل واحد نحو بيته طلبا للنوم.

هكذا كان مبارك يقضي النهارَ نائما، والليلَ مسامرا مقامرا مخامرا، وما تبقى من نهاره، يقضيه مع حليمة التي تزوجها منذ ثلاث سنوات، لكنه لم يرزق معها بنينا. والمرأة التي لا تنجب في القرية، تعيش الأمرين بحيث

تتلقى كلّ أنواع الكلام الجارح، وتعامل معاملة السوء؛ بدعوى أن لا خير فيها أبدا ما دامت لا تنجب بنينا يملؤون الفراغَ الموجودَ في النفوس والبيوت.

ذات صباح استيقظ مبارك على غير عادته. وكان سبب هذا الاستثناء هو صراخ أبناء جاره بوجمعة، الرجل الكادح الذي رزقه الله أربعة بنين، ما جعله يكد ويكدح طوال اليوم من أجل قوت يومه. لهذا ترى المسكين مستيقظا باكرا، ثم متجها نحو المسجد لأداء الصلاة، وبعد انتهائه من الصلاة رفقة الجماعة، يحمل قفة فوق كتفه، فيتجه نحو ساحة واسعة في القرية، حيث يمر كل الأثرياء أرباب الأراضي بغية تخير اليد العاملة. وهكذا كانوا يأخذون بوجمعة وأمثاله من الكادحين المنكوبين في صباح كل يوم. ومن يحتاج إلى العمل، عليه أن يستيقظ باكرا حتى يدركه صاحب العمل في المكان المعلوم.

لقد استيقظ مبارك غاضبا، كما قلنا، ثم شرع يخطب في زوجته قائلا:

- " يا حليمة، كم مرة أوصيتك بإغلاق الباب صباحا، وما أراه هو كونك تضربين كلامي عرض الحائط. بئس المرأة أنت يا شاذة النساء ".

لما تصبرْ حليمة على عتابه يوما، لذلك ترد عليه دون أن تخشى لومة لائم:

- " منذ متى قلت هذا الكلام؟ ألا تعرف بأن رجال القرية قد استيقظوا قبيل الفجر، فذهبوا إلى المسجد، ثم انتشروا في الأرض يبحثون عن قوت يومهم. أما أنت، فإنك لا تجيد شيئا غير السهر ليلا والنوم نهارا، ألا تستحيي من حالك يا أشباه الرجال؟ ".

ثم يرد مبارك ووجهه قد تجهم:

- " أولئك لديهم نساء في بيوتهم. أما أنا، فإن لي سليطةَ لسان، لا تعرف غير العتاب والتنغيص. فعوض أن ترددي على مسمعي هذا الكلامَ الممل، اذهبي للبحث عن دواء لعقمك، لعلك تصيرين امرأةً وتنجبين كباقي النساء".

إن المرأة بدون أولاد لا تساوي شيئا، من منظور أهل القرية، بل تظل عالة على زوجها والقرية معا. لهذا السبب ظل الجدال العقيم بين هذين الزوجين مستمرا. فالزوج ظل لسنوات ينتظر مولودا، لكن هذا الحلم لم يتحقق بعد. وفي هذا الانتظار، يحترق مبارك مرتين: المرة الأولى كلما أزعجه صراخ أبناء جاره، بحيث يحس العجز والفشل، لدرجة أنه شكك في نفسه مرات ومرات، ثم تراه متسائلا عن السبب الذي جعله محروما من زينة الحياة الدنيا. لقد كان يعاني الأمرين، ويتجرع نقمتين: نقمةَ العوز والفاقة، ونقمةَ الحرمان من البنين. أما المرة الثانية التي يحترق قلبه فيها، فإنها تتجلى في تلكمُ النظراتِ الشزراء التي يصدرها سكان القرية تجاهه، والتي تحيل على التفكه والسخرية المرة من حاله.

إن الإنسان هو الإنسان في كل زمان ومكان، وحاجته إلى المال والبنين، ليست وليدة اللحظة، بل إنها تعود إلى عهد الأنبياء والرسل. ألم يتوسل زكريا إلى ربه بأن يهب له وليا يرثه ويرث من آل يعقوب؟ أولم يطلب عبادُ الله الصالحون منه، عز وجل، بأن يهب لهم من أزواجهم قرة أعين؟ علما أن الأنبياء لا يورثون مالا ولا أرضا، وإنما يورثون أبناءهم العلم، وهذا ديدنهم في الأرض منذ نوح عليه السلام، إلى محمد، عليه الصلاة

والسلام. فالمالُ والبنونُ زينةُ الحياةِ الدنيا، والبيتُ الذي لا يتوفر أهلُه على هاتين النعمتين، يظل ظلمةً حالكةً في أعين وأنفس من يسكنونه.

كانت حاجة سكان القرية للبنين عامة، والذكور على وجه الخصوص، متعددةَ الغايات. فهم، من جهة، محتاجون إلى البنين الذي سيملأ فراغَهم الذي يغمر نفوسهم. ومن جهة أخرى، ينظر سكان القرية إلى أبنائهم نظرةً اقتصادية، بالمعنى الحالي. إنهم يستثمرون فيهم بحيث تجد الأبَ يكدّ ويجد حتى يطعمَ أبناءه، ويوفر لهمُ الملبسَ الموسمي، هذا اللباس الذي يراه الأبناءُ مرتين في السنة: أولاهُما في عيد الفطر، وهم مطالبون بالحفاظ على الكسوة حتى يرتدوها في عيد الأضحى من السنة عينها. وثانيتُهما، في بداية الدخول المدرسي؛ لأنهم يشعرون بفرحة شديدة ترفرف بقلوبهم البريئة العفوية، وتشجعهم على الإقبال الفعّال على باب التعلم.

وبعدما يكبر هؤلاءِ الأبناءُ ويشيخ الآباء، تنقلب آية الحياة بحيث تجد الأبناءَ يتكفلون برعايةِ آبائهم حتى يأتي الله بأمره. هكذا ينظر الآباء إلى أبنائهم منذ سنين عديدة.

ولما كانت هذه نظرتهم للبنين، كان ولا بد على المرأة أن تلبيَّ الوظيفةَ الأولى المنوطةَ بها في الحياة، وهي الإنجاب صيانة للنسل.

لم يكن مبارك وحليمة يعرفان مصدرَ هذا الحرمان، إلا أنهما ظلا يرميان باللوم على بعضهما البعض. حيث ترى مبارك، يشعر أنه يرمي بالحصى في أرض يباب لا تنبت شيئا. أما حليمة، فإنها تحاول إخماد نيران الحرمان المؤججة في مهجتها برد اللوم على زوجها. وعلى هذا المنوال، مرت الأيام والشهور والسنوات إلى أن ملّ مبارك من الوضع ثم صرخ قائلا:

- " لقد تعبت من انتظار مولود منك. فكم طلبتُ منك البحثَ عن دواء لهذا العقم، لكنك لا تعرفين قيمة الأبناء، بل تحسنين الأكلَ والنومَ فقط. لهذا فإنني قررت الزواج مرة ثانية لعلي أرزق بنينا ".

أغضب هذا الكلام حليمة كثيرا؛ لأنها كانت تسمع الشتيمةَ الكثيرةَ في ما مضى، ولم تكن لتبالي بهذا الأمر العابر. لكنّ هذه المرة تختلف عن الوضع السابق. إنها لحظة الطلاق الذي يعدّ الخيارَ النهائيَّ في مسيرة الزوجين، يلجآن إليه بعدما تفشل كل المحاولات التي لجآ لها. فلم يكن بوسعها الرد على كلامه، لذلك ظلت تبكي حظها المشؤوم، حيث ما برحتِ المسكينةُ مكانَها في عقر الدار، إذ ظلت تفكر وتعيد التفكير حتى قفزت إلى ذهنها فكرةُ زيارة الفقيه.

مما يحكى حول هذا الفقيه أنه كان عصا موسى في القرية؛ إذ إنه كان يشفي الأطفال من الأمراض التي تلحق بهم في صباهم، كالعين والحسد وما جاورهما، فضلا عن اهتمامه بأمور النساء اللائي يعانين السحر والعقم والعجز. لكل ذلك، ظل الفقيهُ الخيارَ الفعالَ أمام هذه المسكينةِ التي حرمت نعمة البنين في زهرة عمرها.

استيقظت حليمة باكرا، والتحفت لحافها الأسود الفضفاض، ثم تسللت خفية من الباب الخلفي للبيت، فكانت حريصة على أن لا تصدر حركة تؤدي إلى إشعار زوجها بخروجها، ثم اتجهت نحو بيت الفقيه الذي يقع خلف المسجد. وما هي إلا دقائق حتى وجدت نفسها صامدة أمام بابه، فطفقت تطرقه بهدوء حتى لا تشعر عيون القرية بتواجدها هنالك.

فتح الفقيه الباب، ثم التفت برأسه الكبيرة يمينا وشمالا، وشرع البابَ على مصراعيه، وبسرعة كلمح البصر أو هو أقرب، أومأ لحليمة بالدخول.

هكذا وجدت المسكينة نفسها في عقر دار الفقيه ذي القامة المتوسطة، واللحية البيضاء التي تغطي عنقه كله.

كان الفقيه يضع أمامه آنيةً طينيةً صغيرة في وسطها بيضة. أما في جانبه الآخر، فإنه يضع حبرا وريشة يوظفهما في كتابة الطلاسم والتمائم.

استفهم الفقيه أمر حليمة، متسائلا عن سبب مجيئها في بكرة النهار، فظلت تسرد إليه الويلات والنقمات التي تجرعتها رفقة زوجها، والتي كان سببَها حرمانُها من الإنجاب. هكذا، ظلت حليمة ترصد حركات الفقيه، حيث أخذ يتمتم بكلمات تبدو أعجمية، ثم يصدر حركاتٍ شيطانيةً بيديه المرتعشتين المتجعدتين، ظنا منه ومنها، أنه يستدعي جنودَه من الجن، هؤلاء الذين يساعدونه على قضاء حوائج الأناسي، ويكونون له عونا وظهيرا على شفائهم.

دام الشيطان على هذه الحال وقتا طويلا، ثم فجأة توقف عن الحركة المزعجة والتعاويذ المرعبة، فطفق يخط خطا على البيضة، وما إن انتهى من فعله حتى طلب من حليمة الاحتفاظَ بصنيعه إلى أن يجن الليل، ثم تأخذ آنيةً صغيرة، وتفقس هذه البيضة ثم تحركها جيدا، وبعد ذلك تتجرعها جرعةً واحدة.

هكذا كانت وصفة الفقيه التي تقاضى عليها مالا وافرا، بيد أن المسكينة وضعت كل ثقتَها في هذا الدّجّالِ الآفاك، فنامت على انتظار الذي يأتي ولا يأتي ليالٍ طوالا.

استمرتِ الأوضاع على هذه الحال، وانتظرت حليمةُ ثلاثةَ أشهر مليئة بالصراع والشتيمة والتعيير من لدنِ مبارك. حيث إنه ما فتئ يعمق هذا

الجرحَ بكلامه الذي لا يعير اهتماما لحرماتها؛ لأنه كان مصابا بإسهال في اللسان، فظل يصب جامّ غضبه على من ليست لها يد ولا حيلة في محنتها تلك.

لم يستطعِ الفقيهُ فكَّ طلاسم هذا اللغز المحير. ولأن للفجر عيونا لا تغمض لها جفون، ولا يعرف النومُ إليها سبيلا؛ لأنها تظل متقدة لتجري في الخيرات، فإن أمر الفقيه وحليمة قد شاع في القرية. إنه حديث الساعة الذي حلّ محلَّ الوعظ في المساجد، وصار متداولا على الألسن التي تترفع بالخبر، رغم قلة شأنه، إلى أعلى عليين، فتملأه بالتهويل والأسطرة المنغمسة في بحر السخرية والتفكه اللجي. وإزاء هذه الظروف، كانت خسارة حليمة والفقيه خسارتين:

لقد خسر الفقيه، والذي كان يحظى بمكانة مرموقة في عيون الجميع، حظوتَه ومكانتَه، فطفق أهلُ القريةِ يرجمونه رجما، ثم طردوه خارجَ حدود قريتهم.

أما حليمة، فإنها خسرت معاشرةَ زوجها، لأنه اعتزلها مدةً طويلة، ولم يجتمعا إلا حينما شعر بالعطش يختمرُ في نفسِه الضعيفة، فأتى يحبو على ركبتيه ليشفيَ غليلَهُ الحيواني.

لقد علمت نساءُ القريةِ أمرَ حليمة الذي دُبِّرَ بليل فانقسمْن شيعتين. أولاهما، صار ثلةٌ من النساء يصلْن ويجلْن في القرى المجاورة، يطلعن نساءَها على الخطيئة التي اقترفتها حليمةُ التي أعمت نقمةُ الإنجابِ عينَها، وأوحى إليها الشيطانُ ما أوحى.

وثانيتهما، هن النساء اللواتي حزن لأمر حليمة، فقررن مساعدتَها على غسل عارها، وتجاوزِ محنتها وخسارتها الفادحتين. وكان من هؤلاء النساء، جارتها خديجة، زوجة بوجمعة، بحيث حملتْ نفسَها وَزَارَتْ حليمةَ في عقر دارها، ثم شرعت تخاطبها قائلة:

- " لقد عَلِمَ الجميعُ بأمر زيارتك بيتَ الفقيه، فصار الخبرُ حديثَ كل لسان. كما أن هنالك نساءً سعيْنَ سعيا لنشر الخبر في القرى المجاورة. لهذا، لا يجدر بك أن تكوني حزينة؛ لأنك لم تكوني تجرين في سبيل الشر، بل كان سعيك محمودا. فأنت امرأة كباقي النساء، وستتشوقين لقرة الأعين، والبنينُ نعمةٌ من الله، وهم زينةُ المرأةِ التي تظل بدونهم، أي البنين، عاطلا. لم تكوني الوحيدةَ التي زارتِ الفقيه، وإنما دأب الكثير من النساء على القيام بهذا الأمر، حتى إن منهن من يأتين من القرى القريبة منا. لهذا السبب، ارتأيت أن أخبرك بقصتي مع معجزة الإنجاب التي طالما تشوقتِ لسماعها:

- " كنت قد تزوجت بوجمعة منذ ست سنوات، مرت منها سنتان لم أنجب فيهما أولادا، فدأب الشكُّ والحيرةُ يأخذان في نفسي مأخذَ الجد، ما جعل بوجمعة يعتزلني أياما كثيرة، ويعاشرني أياما قليلة.

تأزمتِ العلاقة بيننا، وبدأ كل منا يرمي بالويل واللوم على الآخر. حتى سمعت عن ضريح الولي الصالح "سيدي داود"، هذا المكان المقدس المبارك الذي زاره الكثير من النساء في القرية فاستطعن الإنجاب، ثم إسعادَ أنفسهن وأزواجهن.

حملت نفسي والعزم يحرك ساقيّ، فغدوت أستبق الرياح، وقصدته في مصيبتي قصدا. ثم ظللت هنالك ثمانيةَ أيام: أتعبد وأتبتل حتى انقضَتِ

المدة، وعدت للقرية. وما هي إلا أشهرٌ حتى بدأ الجنينُ ينمو داخلَ أحشائي.

لم تكن هذه المرة الأولى والأخيرة التي أزور فيها الولي الصالح، وإنما كنت أتردد عليه خلال رأس كل سنة، لأقضي فيه الأيامَ نفسَها التي قضيتها في المرة الأولى، ثم أعود إلى زوجي فأحبل مجددا ".

كانت هذه قصةَ خديجةَ مَعَ محنةِ الإنجاب، والتي بعثت على الاستغراب والفرح في نفس حليمة، فانطلقت تستفهمُ الأمرَ درءً للشك:

- " لقد استهواني كلامُك هذا، وأعتقد أنني سأزور هذا الوليَّ الصالح، لعله يزيل الظلامَ من عيني، ويساعدني في محنتي. فما الذي عليَّ فعلهُ يا صديقتي؟ ".

- " كفكفي دموعَكِ أولا، وحاولي أن تشرعي هذه الليلةَ في جمْعِ رزمة تضم بعضَ الملابس، فضلا عن مؤونة ثمانية أيام. كما أنك مطالبةٌ بأن تأخذي معك قدرا من المال. أما أنا فإنني سأرافقك حتى تصلي إلى عين المكان، ثم أقضي معك ليلةً واحدة وأعود إلى القرية ".

- " لمَ لا تظلين معي ثمانيةَ أيام، ستكونين لي خَيْرَ أُنيسٍ يا صديقتي خديجة؟ ".

- " ليس بيدي حيلة؛ لأن زيارتي للوليِّ الصالحِ ليس هذا وقتها. بل إنني أزوره في الأيام التي زرته فيها للمرة الأولى، لتكون الزيارةُ مباركةً وقضاءً لحاجتي ".

وأردفت خديجة تقول:

- " لا تنسي أننا سنخرج غدا في الصباح الباكر، وسنلتقي في الطريق القريبة من الساقية. لا تتأخري حتى ندركَ الوصولَ وغروبَ الشمس ".

لما أتى الليل يجر ذيولَه المليئةَ بالهموم، كانت حليمةُ منهمكةً في إعداد الأغراض التي ستحتاجها للإقامة في الضريح. ثم نامت وحيدةً في فراشها إلى أن بدأ ضوءُ الصباح يعربُ عن نفسه.

التقت حليمة بجارتها في الطريق القريب من الساقية، ثم توجهتا حيث الوليُّ الصالح. فتحملتِ الجارتانِ وَعْثَاءَ السفر، حتى بلغتا غايتَهما مع غروب الشمس كما أُتفق.

كان الضريح يقع وسط قرية تسمى زولي، هذه القرية التي تتوفر على المقومات الطبيعية والجغرافية كشأن القرى المجاورة لها. ولهذه القرية مشهدٌ غاية في الروعة، حيث ترى النخيلَ الكثيفَ يتهاوى ويعانق بعضه بعضا، والسواقي تجري مياهها إلى مستقر لها.

اتخذ أصحابُ الضريح مكانا واسعا؛ لأنه محاطٌ بالنخيل بحيث يراه كل من أقبل على القرية من مسافة بعيدة. أما مواد بنائه فهي الطين والقصب وعود النخيل. وفي داخله توجد قبة واسعة مربعة مغطاة بثوب أخضر، وفي جنباتها توجد أماكن فسيحة للنوم، والتي غالبا ما ينام فيها الزوار الذين يأتون من القرى البعيدة، وفي أنفسهم حاجةٌ سيقضيها الولي سيدي داود. في جدرانه الطينية، هنالك ثقوبٌ متوسطةُ الحجمِ تُوضَعُ فيها الشموعُ والبخور.

لمّا تدخلِ الضريحَ للوهلة الأولى، تغمرك روائحُ البخورِ الكثيفة حيث تتهاوى أمام عينيك كالكواكب.

ففي هذه الأجواء الغريبة قضتِ الصديقتان ليلتَهما، والتي لم يغمض لهما فيها جفن؛ لأن ثمة أشباحا تقترب منهما ليلا، وكلما حاولت حليمة الصراخ، تبادر خديجة باطمئنانها، بدعوى أن ما تحسه حليمة لا يعدو كونه وسواسا وهواجس، هي إرهاصاتٌ أوليةٌ لقضاء الحوائج.

عادت خديجة إلى القرية في صباح اليوم الثاني، وتركت حليمةَ هنالك، تعاني محنةَ الإنجاب في ضريح الولي الصالح سيدي داود.

في حقيقة الأمر، لم تكن حليمةُ وغيرُها من النساء، وحدهن في هذا المكان، وإنما كان رفقتهن الولي الذي يختبئ في قبره محاطا بالثوب الأخضر الفضفاض.

مر النهار حثيثا وحليمة تعاني الأَمَرَّين. فمن جهة، تشعر بأن أنفاسها تكاد تتوقف عن الحركة في رئتيها بفعل البخور الكثيفة، فضلا عن رائحة الشموع التي تضيء المكان، لكنها تنطفئ في الليل بعدما تحرق نفسها في سبيل إضاءة الضريح. ومن جهة أخرى، يغمرها خوف شديد من وحشة المكان المدلج، حيث إنها لا تسمع صوتا غير صوت الحشرات الليلية المزعجة؛ كالصراصير والقِذَّانِ اللذين يلعقان دمَ الأجساد لعقا.

فلما حملتِ الشمسُ ذيولَها وامتنع القمر عن الظهور، سادتِ المكانَ ظلمةٌ حالكة، فحاولت حليمة النوم عبثا. إذ أسندت رأسَها على قفتها، لكنها لم تستطع النوم؛ لأن نفسَها مثقلةٌ بالهموم والويلات، وعقلها يقارع الأفكار المتناقضة بداخله. وبعد الكثير من الانتظار، زار النوم عيني حليمة، لا لشيء إلا لكون النومِ راحةً للأجساد المريضة التي أثقلتِ الهمومُ كاهلَها.

أثناء الليل أحست حليمة أن ثمة شبحا يقترب منها، لكنها امتنعت عن الصراخ لأنها فقدت وعيها. ولما استيقظت مع بزوغ الصباح الوضّاح، شعرت بانهماك شديد في جسدها، كما أنها كانت تنزف ليلا لما أغمي عليها، دون أن تشعر بشيء. وكما جرت العادة، ظلت تُطَمْئِنُ نفسَها بأن هذه الظروفَ الطارئةَ ما هي إلا بداياتٌ للشفاء؛ وما دامت قد نزفت دما فإن هنالك إنجابا في الطريق لا محالة، يحتاج إلى معاشرة مبارك ليلةً واحدةً فحسب، لعله يضفي شرعيةً على هذا الإنجاب.

مر اليومان، الثالثُ والرابع، لم تشعر فيهما حليمة بشيء يبعث على الشك والحيرة؛ لأنها قضتهما كما تقضي باقي أيامها في القرية: تأكل أكلا متقشفا، وتشرب ماءً قليلا، ثم تنام نومَ اللحود متكئة برأسها على القفة، ولا تستيقظ حتى يأتيَ ضوءُ الصباح مرتسما على جسدها الناعم.

لقد قضت حليمة أيامها في الضريح، كما فعلت جارتها، ثم حملت أشلاءها، لكن قبل أن تغادر الضريح، ظلت تطوف حول قبر الولي الصالح مرات عديدة، ثم أوقدت ما تبقى في حوزتها من الشموع، فدفعت الفتوح للقوامين على أمر الضريح، واتجهت صوب القرية تستبق قدماها الرياح.

بلغت المسكينة القريةَ مع غروب الشمس، فدخلت بيتها على حين غفْلة من أهل القرية. ثم ظلت برهة من الزمان تحاول استرجاع أنفاسها. ولما انتهت مهلة الراحة، شغلت نفسها بإعداد العشاء. وفي هذه الأثناء، دخل مبارك على غير عادته البيت الذي غاب عنه مدة عشرة أيام، فشرع يقبل زوجته، ويعانقها عناقا طويلا حتى دخلا في سكرة الموت، وناما دون أن يتناولا عشاءهما.

استيقظ الزوجان صباحا، ثم غادر مبارك البيت متجها نحو الساقية، ولأن الفصل كان صيفا، فإنه طفق يرتمي بجسده في الماء، ويعيد الكرة مرات ومرات حتى تيقن أنه وضع أدران تلك الليلة من جسده، ورمى بها في مياه الساقية التي تجري إلى مستقر لها.

عاد إلى البيت فوجد حليمة تغني وهي منهمكة في إعداد الفطور، كما أن الرشاقة تطفو على جسدها الناعم الذي رأى النور بعد طول ظلام. هكذا مرت الأيام والشهور عليهما إلى أن شعرت حليمة ذات صباح بأن علامات الحمل تظهر عليها.

لم تعجل حليمة في الإفصاح عن أمرها حتى تتيقن منه، لذا راحت تستفهم خديجة في سر عن هذا الأمر الطارئ قائلة:

- " يا صديقتي العزيزة، إني شعرت صباح أمس بالدوران، ونفسي مضطربة لا تقوى على الأكل. هل شعرت بهذا الأمر يوما من قبل؟ ".

ضحكت خديجة كثيرا، ثم طفقت تعانق جارتها وتهنئها قائلة:

- " ألف مبارك عليك يا حليمة. إنك حامل وستصيرين أما، ما أحلمك يا صديقتي، فلولا خشيتي من أذن القرية لملأت المكان بالزغاريد.

انظري كيف كانت بركة الولي سيدي داود. لقد تمكن بفعل معجزاته من إزالة عقمك. أما الآن، فإنك صرت واحدة من أهله ".

تساءلت حليمة في استغراب:

- "لم أفهم كلامك، كيف صرت واحدة من...؟ ".

- نعم يا صديقتي، هل تريدين ملء الدار على مبارك بالأولاد الذين تشوق إليهم لسنين؟ ".

ضحكت حليمة، ثم قالت:

- " ومن هذه المرأة التي لا تريد إنجاب أولاد كثيرين؟ أكيد، سوف أنجب لسيدي مبارك الكثير من البنين ".

- " تماما، لذلك فأنت مطالبة بتجديد الزيارة كلما رغبت في الإنجاب، يجب عليك أن تحترمي وقت الزيارة المحدد ".

بهذه الكلمات انتهى الحوار بين الجارتين، فعادت حليمة نحو بيتها فرحة: إنها نعمة البنين التي كانت بدونها امرأة عاطلة. أما الآن فقد صارت امرأة في عين مبارك الذي علم الأمر بعد عودته، فغدا يرفرف في أرجاء البيت كالطائر في السماء.

لقد شعر مبارك بالفحولة والرجولة أخيرا؛ لأن امرأته حامل، والآن صار باستطاعته أن يفخر بين أصحابه بهذا العمل العظيم.

كان هذان الزوجان في حاجة إلى البنين، والحاجةُ مصدرُها النقص، كما أن لها أوجها متعددة.

فمنا من يشعر نقصا بيولوجيا فيحتاج إلى الأكل والنوم والجنس وما إلى ذلك. ومنا من يشعر نقصا نفسيا فتجده غارقا في البحث عن الحاجيات التي تلبي هذا النقص النفسي. والشيءُ نفسُه ينسحب على من يشعر بنقص مادي، كحاجته إلى المال مثلا، فتجده يتخذ سبلا متعددة تقوده إلى الحظوة بهذه الحاجة.

إن الحاجة ضرورة، ولأن الإنسان خلق هلوعا، إذا مسه الشر جزوعا، وإذا مسه الشر منوعا، فإنه في دأب دائم نحو الكمال، هذه الغاية التي تتولد عنها الحاجة. والكمال حاجة لن يدركها الإنسان من مهده إلى لحده.

لما نحصل على الحاجة، فإنها تغير أشياء ونظما كثيرة في حياتنا. فمن يحتاج إلى المال مثلا، يكدح طلبا له، ولما يحصل عليه تراه قد طفق يغير مأكلَه وملبسَه ومسكنَه ولو استطاع لغيّر جلده.

لقد حصل الزوجان على حاجتهما، أو بالأحرى استطاعا أن يملآ النقص الذي شعرا به لسنوات. لهذا كان لزاما عليهما أن يناقشا أمر الجنين عاجلا أو آجلا.

تقول حليمةُ مبتسمة:

- " يا مبارك، إننا سنرزق مولودا بعدما كدنا نقضي زهرة عمرنا دون أولاد، سيتبدد الصمت الرهيب الذي خيم على بيتنا الواسع ونفوسنا المظلمة. أتعرف يا عزيزي أن الأولاد في حاجة إلى مأكل وملبس ومسكن؟

أما المسكن فإن لنا بيتا واسعا باستطاعته أن يضم مئات الأولاد، لكن المولود سيحتاج إلى لباس وأكل خاصين به. لهذا، فإنني أرى أن من واجبنا اذخارَ بعض المال حتى نستطيع القيام على أمره ".

- " صحيح يا حليمة، فرغم أن أجدادنا كانوا يقولون إن الأولاد يولدون بأرزاقهم، إلا أنهم كانوا يعانون الأمرين في تربيتهم والإنفاق عليهم.

إني أخبرت الحاج عبد الله بأمر المولود الذي سيخرج للحياة، فاقترح علي أن أتكفل بأخذ المحصول إلى السوق، وكذا الإشراف على بيعه، وبهذا سيضاعف لي الأجرة ضعفين، وأعتقد أنه فكر لأمرنا، لذلك ارتأى أن يضاعف أجرتي حتى أذخرُ بعض المال لرعاية المولود ".

هبت رياح التغيير على حياة الزوجين، وصارا كالجسد بعدما كانا شيعتين، فانشغلت حليمة في نسج بعض الملابس الصغيرة ترقبا لفصل الشتاء. أما مبارك فقد دأب في العمل الكادح، يذخر المال لأجل المولود الذي ما زال في رحم أمه، فصار يكدح في سبيله بكرة وأصيلا.

مرت الشهور وانتهت مدة الحمل. ولما أتى المخاض يأخذ من حليمة مأخذ الجد في الصباح الذي يتراقص بهوائه العليل، استيقظت من فراشها فوجدت أن هنالك نزيفا يملأ الفراش، فصرخت ملء حنجرتها، مستنجدة بمن يساعدها على وجع الولادة، وما أصعب وجع الولادة. سمعت جارتها الصراخ فجاءت من بيتها تسعى.

تمكنت خديجة من مساعدة جارتها، هذه المسكينة التي ستتذوق نعمة البنين رفقة زوجها بعدما انتظرا طويلا، فها هي لحظة الولادة تأتي على حين غفلة. لقد رزقت حليمة بمولود يشبهها كثيرا في ملامحه، لكنه لا يمت بأي صلة لوالده؛ لأن لون مبارك كان أسمر، في حين أن لون المولود يميل إلى الحمرة. لكن، لا مجال للاختلافات العرضية في هذه الأثناء من الحرمان، لذا ترى مبارك يركض في حقول الحاج عبد الله ركضا. لقد علم بخبر ولادة حليمة التي أنجبت مولودا ذكرا. فلما بلغ بيته، أقبل يحمل المولود بين ذراعيه، فيقبل جبينه تارة وجبين حليمة تارة أخرى، والتي صارت مبجلة؛ لأنها تمكنت من ملء فراغ البنين في نفسه.

تعاقب الوقت على أجواء الولادة في البهجة والسرور، فكان سكان القرية يتهاطلون على بيت مبارك، رجالا ونساء، يهنئونه بمولوده الجديد. إذ ترى أباريق الشاي مترعة، والمائدة ممتلئة عن أخرها بكل ما تشتهيه الأنفس والأعين من الحلويات، هذا في وسط النهار. أما في المساء، فإن المائدة تملأ بالسمن والعسل البلدي وخبز الدار الكبير.

مرت ستة أيام على الولادة، فذهب مبارك إلى السوق الأسبوعي. ثم اقتنى أضحية سمينة واشترى كل ما سيحتاج إليه في الاحتفال بالمولود.

وفي اليوم السابع، حضر أكابر القرية إلى بيته، ثم ساعدوه على ذبح الأضحية، فاقترح مبارك اسما لمولوده، وهو المهدي؛ لأنه اعتقد أن هذا المولود هبة من الله بعدما انتظره طويلا.

في هذه الأجواء البهيجة، قرعت الطبول قرعا، ورقص الجميع، ثم أكل وشرب، فانتهى الاحتفال في ليلة اليوم نفسه، ومرت الأيام والشهور على المهدي الذي بدأ يكبر كأيها الناس.

كبر الرضيعُ مع مرور الأيام، فصار يستطيع الوقوف على رجليه، وينطق بعض الكلمات المتقطعة. في القرية، قلما يرضع الرضيع حولين كاملين، وإنما تتراوح مدة رضاعته حولا ونصفه، ثم يبدأ في أكل الخبز المنغمس في الشاي حتى يكبر.

لقد كانت حليمة تشعر بأنها في حاجة إلى الإنجاب مرة أخرى؛ لأن في نفسها نقصا كبيرا لم يملأ بعد. لهذا السبب، لم تكن لتنتظر حتى يأتي الحمل كالمعتاد، بل وطنت نفسها على زيارة الولي الصالح مجددا. لقد استطاعت إقناع مبارك حينما شرعت تقول:

- " إن المهدي قد أصيب بالعين من قبل الحساد، ويجب علي أن آخذه لضريح الولي الصالح حتى يشفى من هذا الداء ".

فرغم كونها قد صارحته بمدة مكوثها الطويلة هنالك، فإنه لم يبد رفضا ولا اعتراضا. ولكنه وضع ثقته في حليمة التي ملأت فراغه بالمولود.

توجهت حليمة رفقة طفلها تلقاء قرية زولي. ولما وصلت، مكثت هنالك ليلتها الأولى في أمن وسلام. بيد أنها، وفي الليلة الثانية، شعرت بخوف شديد يملأ قلبها، فحاولت أن تداعب طفلها لعله ينام، وقد أفلحت في هذا الأمر بحيث نام الطفل في هذه الظلمة والبخور المؤججة، ثم حاولت النوم هي أيضا. فما إن بدأ النوم يغشي عينيها حتى شعرت بيد تجر ثوبها جرا، فطفقت تصرخ صراخا وثّابا اقتحم جدران الضريح، وانضاف إليه صراخ الطفل الذي استيقظ هولا وجزعا.

بلغ الصوت البيوت التي تجاور الضريح، فأتى سكانها مقبلين عليها والقناديل المضيئة في أيديهم. ولما دخلوا المكان، شرعوا يستفهمونها عن سبب صراخها، وحكت لهم قصتها بكل دقائقها فقامت قيامتهم. ثم ألزموا أنفسهم بالمكوث هنالك، وبدون أن تغمض لهم جفون، حتى يأتي الصباح فيخوضون في أمر هذا الولي الصالح.

لقد انتشر في قرية زولي، منذ سنين، أن الضريح يسكنه الجن، لذلك امتنع أهل القرية عن زيارته، فبقي ملجأ للغرباء الذين لم يعلموا بقصته بعد. كانت هذه الواقعة هي اللحظة التي كان ينتظرها ثلة من شباب قرية زولي منذ سنوات. فهم قد درسوا علما حديثا في الجامعة، كما أن لهم وعيا يتسلحون به لمثل هذه الأوهام والأساطير الخرافية التي تملأ عقول العوام، وتتلاعب بهم كيفما شاءت. لهذا اجتمعوا ثم اقترحوا هدمَ وردمَ الضريح،

حتى وإن كانوا سيتعرضون للأذى من قبل أهل القرية. فقد كان هذا الضريح، في نظرهم، مجردَ عالةٍ خرافيةٍ على عقول أهل القرية.

فلما أتى الصباح، اجتمع أهل القرية ليشهدوا على الخطيئة التي سيقترفها هؤلاء المتهورون؛ لأن كل واحد منهم أحضر فأسه. وما إن اقترب الشباب نحو القبة ذات الثوب الأخضر حتى سمعوا حركة صدرت من داخلها، فرجع الجميع القهقرى إلا شابا واحدا لم تحرك هذه الحركة في نفسه ساكنا؛ لأن له اعتقادا راسخا قد خبره عن جده الذي كان فقيها، وهذا الاعتقاد هو أن الجن لا تظهر في النهار، وإنما تخرج في الظلمة حتى لا يراها الإنس. وبما أن الوقت كان نهارا، فإن ثمة حيوانا ما داخل القبة قد أصدر هذه الحركة، لذا تقدم الشاب خطوات والبسالة تظهر على وجهه، ثم جر الثوبَ الأخضرَ بيديه جرا، فظهرت القبة بجدرانها الطينية. إنها عبارة عن غرفة صغيرة، كان سقفها هو الثوب الأخضر الفضفاض الذي يغطيها كلها، كما أن لها مخرجا صغيرا.

فاكتشف الجميع أمرا لم يكن ليخطر في خلد سكان القرية، وهو أن صاحب الحركة لم يكن حيوانا، وإنما هو بشرٌ لا يختلف عن الناس في صفاتهم، إلا أن له سريرةً مليئةً بالأدران. فهذا البشر هو رجل من قرية زولي، واحد من الذين يقومون على أمر الضريح نهارا. لقد ورث هذا العملَ الشيطانيَّ الذي يمارسه في الخفاء عن والده.

لم يعلم أهل القرية أن هنالك نساءً كثيراتٍ قد أقمن في هذا الخراب أياما، ولكن حليمةَ وجارتَها، وكذا الأخريات اللواتي زرن المكان من أجل الإنجاب، هن اللائي وقعن في شرك الولي الصالح.

صارت حليمة تبكي بكاء مريرا، ثم علمت أن هذا الطفل ليس لمبارك؛ لأنها إن عادت للقرية، فإنها ستقضي نحبَها على يديه، لهذا اختارت أن تذهب رفقة طفلها إلى مكان في قرية مهجورة لا تطؤها قدم بشر. عاشت هنالك مطمئنة؛ لأن سبب العجز كان هو مبارك الذي لم يستطع القيام بتلبية هذه الحاجة البيولوجية.

لقد كانت النساء اللائي وقعن في الخداع يعانين مصيبةَ الجهل. فهن لم يتعلمن في المدرسة، وإنما ظللن يغذين عقولهن على فضلات حكايات الجدات، تلكم الحكايات المليئة بالتهويل والتخريف والأسطرة، حتى اختلط في عقول النساء الولي الصالح بالطالح. وما أكثر الطالحين الذين ينهبون ويسلبون أموالَ الناسِ وشرفَهم بغير حق. أما أولياءُ اللهِ الصالحون فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون؛ لأنهم عاشوا صالحين في زمانهم ثم وارهمُ التراب. إنهم براءٌ مما يفعل السفهاء من الناس. لذلك فإن النساء يحتجن إلى معرفة أن الله وحده يرزق المال والبنين، وأنه "هو الذي يصور الخلق في الأرحام كيف يشاء"، ويهب لمن أراد منا ذكورا وإناثا. "والله يعلم وأنتم لا تعلمون".

هكذا انتهت أسطورة الولي الصالح في قرية زولي الذي بلغ عدد أطفاله المئات. وما يدرينا لعل وليا صالحا قد احتل مكانَه في زمان ومكان آخرين؟ فالناس هم الناس في كل زمان ومكان. والله المستعان على ما تصفون.

****

الروح الأبية

- " لقد انتظرت العمل طويلا يا أحمد. متى يستجيب الله لطلبي فأعمل مثلكم؟

- انتظر يا مبارك فإنه سيأتي قريبا؛ لأني تحدثت لك مع صاحب الشاحنة فوافق على الأمر.

- في الحقيقة، لا زلت مترددا في العمل معكم؛ لأني لا أطيق قيظ الشمس الذي يصفع الوجوه، ولا تلكم الكثبان الرملية التي تظلون غارقين فيها طوال يومكم ".

هكذا دأب الصديقان على أن يتحدثا كل صباح عن العمل. لقد كان أحمد يعمل في مجال البناء. حيث يقضي يومه كله في الصحراء، يملأ الشاحنات بالرمال الواحدة تلو الأخرى. وقد ألف على هذا العمل الشاق منذ سنوات. لكن مبارك لم يعثر بعد على عمل تطمئن له نفسه، لذلك تراه مترددا في قبول العمل رفقة صديقه.

وقد استمر الوضع على هذه الحال مدة طويلة حتى أتى مبارك ذات ليلة يطرق باب أحمد. ولما فتح هذا الأخير الباب، سأله مبارك:

- " أحمد، معذرة عن الإزعاج في هذا الوقت المتأخر من الليل. لقد فكرت في الأمر كثيرا، فقررت العمل معكم. وسأشرع في العمل غدا إن شئتم ".

ظهرت ابتسامة خجولة على وجه أحمد، فردّ على صديقه قائلا:

- " وأخيرا، وافقت على العمل معي يا مبارك. أنت تعلم أنني قضيت سنوات وأنا تائه بين الكثبان الرملية وحدي. وها أنت يا صديقي سترافقني في محنتي الآن ".

ابتسم مبارك وهو يقول:

- " إني سعيد بهذا الكلام يا أحمد. هل سأبدأ العمل غدا؟ ".

يجيب أحمد وهو يسرح لحيته بيده التي أثخنت جراحا حتى غدت صلبة كالصخرة:

- " أكيد. يمكنك مرافقتي صباحا، ولتأخذ معك مجرفتك، وبعض الملابس التي ستقي جسدك من قيظ الشمس ".

أنهى الصديقان حوارهما. ثم عاد مبارك إلى بيته يحدث زوجته عائشة وابنتيه عن العمل الذي سيشرع فيه غدا. لكن كلامه لم يلق قَبولا عند أسرته الصغيرة ما جعله يخلد إلى النوم وهو يهمس قائلا:

" يصبح ويفتح...".

بهذه الكلمات ودع مبارك اليقظةَ المفعمةَ بالحيرة، ثم انغمس في متاهات الحلم. فبدأت الأحلام المليئة بالكوابيس المرعبة تطفو على ذهنه. لقد رأى حلما مخيفا ومزعجا؛ وهو أنه بدأ العمل رفقة صديقه. وعلى حين غرة، يأتيه شخص مجهول الملامح من الخلف، فيضرب رأسه بآلة حديدية أودت بحياته. فكان الغريب في الحلم هو كون أحمد حاضرا لحظة وقوع الحادث، لكنه لم يبد حراكا ليرد الهجوم عن مبارك. بل ظل يضحك ضحكات ملأت المكان كله.

استيقظ مبارك مذعورا من جراء حلمه هذا، فقفزت الشكوك والظنون إلى عقله ما خطف النوم من عينيه. ثم بقي مستيقظا طوال الليل حتى أتى ضوء الصباح، فأخذ يجمع معدات العمل، ليغادرَ البيتَ دون أن يستأذن أهله ويلتقي بأحمد.

بدأت الأيام تمر على الصديقين وهما ذائبان في عملهما الشاق. فحدث ذات ليلة أن دار حوار بين مبارك وعائشة. فقالت:

- " مبارك، متى ستحصل على أجرة الشهر؟ ".

يرد مبارك والأسى يملأ وجهه المتجعد:

- " لقد أخبرني أحمد أن الأجرة ستتأخر هذه المرة، نظرا للركود والسكون الذي يعرفه العمل في هذه الأيام ".

لم يمر هذا الحوار مع عائشة بسهولة. لذلك ضغطت على مبارك بدعوى أنها تحتاج لبعض المال حتى تقتني لابنتها الصغرى كسوة.

استيقظ مبارك كعادته فالتقى بصديقه في المكان المحدد. ثم ذهبا إلى العمل وهما تائهان في دروب الحياة وبناتها.

لاحظ أحمد الأسى الذي يملأ وجه مبارك، فاستفهم حاله قائلا:

- " ما بال صديقي العزيز حزين؟ ".

رد مبارك وهو يخط في الرمال عبثا:

- " لقد تأخرت الأجرة، وأنا في حاجة إلى مائتي درهم حتى ألبي طلب زوجتي ".

طرق أحمد برهة من الزمان. ثم شرع يقول:

- " أنا سأقدم لك المبلغ، ولن آخذه منك حتى نحصل على أجرتنا ".

انشرح صدر مبارك، وطفق يذوب في عمله الشاق. فمرت الأيام على هذا الحادث، وحصل الصديقان على أجرتهما. لكن مبارك لم يستطع تسديد الدين مما جعله يخوض صراعا دائما رفقة صديقه.

وذات صباح، التقى الصديقان في المكان المعهود. وعلى حين غفلة، اشتعلت نيران الجدل بينهما، فصارت سبله تتشعب بينهما حتى أخذ أحمد مجرفته، وضرب رأس مبارك مما أودى بحياته.

بعدما قتل أحمد صديقه، وجد نفسه في مأزق. حيث صار يخبط خبط عشواء، فتراه يقدم في الأمر تارة، ويحجم فيه تارة أخرى؛ لأنه لا يعرف كيف يواري سوءة مبارك. ليستقر في الأخير على دفنها بين الكثبان الرملية. وكذلك فعل في حزم وصبر.

انتشر خبر اختفاء مبارك بين السكان، ومرت الأيام على هذا الحادث الذي هزّ نفوسَهم هزا. حتى عثر رجل كان يمر هنالك وهو يمتطي ناقته على جثمان بين الكثبان الرملية، وفيه رائحة نتنة تصد المارين من جانبها. وما هي إلا مدة قصيرة حتى زفَّ الرجل بالخبر إلى الشرطة ما جعلهم يفتحون باب التحقيق من جديد.

لقد كانت روح مبارك متمردة. إذ إنها تأبى الاستقرار في مقام العلي المقتدر. لهذا بدأت تزور أحمد في كل ليلة، فتقض مضجعه اللحظة بعد الأخرى.

يقول أحمد:

- " لم تمض علي ليلة واحدة إلا ورأيت مبارك بوجه متجهم، وفي ثوب أبيض كأنه يمد يديه إلى عنقي فأختنق. ثم أستيقظ من نومي مذعورا ".

لم يستطع أحمد الصمود طويلا أمام هذه الأحلام المتكررة، فذهب ذات يوم عند هالة من الناس، كانوا يعملون وهم منهمكون في ما يفعلون. ولأن قتل النفس البريئة بغير حق يعد جريمة، فإن أحمد طفق يقول بمحض إرادته:

- " أنا من قتل مبارك. لقد ضربته ضربة على رأسه؛ لأنه لم يفِ بوعده. يا له من خائن ".

هكذا، ظل أحمد يهتف في جنون حتى هرول واحد من أولئك إلى مركز الشرطة يخبرهم بما سمعته أذناه. ثم عاد إلى عمله كأن شيئا لم يحدث.

قضى أحمد اليوم كله رفقة هؤلاء. ولما بدأت الشمس تتبدد في حضرة المساء، عاد أحمد إلى بيته. لكنه، وعلى مقربة من البيت، وجد الشرطة تكبل يديه بالأغلال وتأخذه إلى المركز حتى تباشر التحقيق معه.

لم يبد أحمد أي ردة فعل على ما صدر من المحققين. كما أنه لم يأب عن الاعتراف بالحقيقة كاملة. فوجد نفسه خلف القضبان بثياب رثة، ونفسية مهزوزة يقضي الأيام في صمت، ويتجرع كؤوس العذاب جرعة جرعة.

لكن الروح الأبية لا تعرف السكون والاستقرار، فظلت ترافقه طوال الأيام التي قضاها في السجن. كما أنه لم يستطع النوم بعد فعلته الشنيعة، بل ظل

غارقا في التفكير حتى قرر يوما وضع نهاية لحياته. وكذلك شاءت الأقدر أن يفعل.

فمرت الأيام وأحمد يتضور جوعا بين الجدران حتى غدا خشبة لا حراك بها، فعلم السجان أنه قد مل تأنيبَ الضميرِ وعذابَه، فاختار الرحيل إلى حيث تتواجد روح مبارك الأبية. كما أنه علم أن عقوبة السجن لم تغسل دم صديقه المغدور.

" لا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ".

****

نحو ثورة جديدة

ثمة قول مأثور يقول: إذا زاد الشيء عن حده انقلب إلى ضده، كما أن الضغط يولد الانفجار، ومهما امتلأت الكأس عن آخرها، فإن ثمة نقطة ستجعلها تفيض. وكثيرا ما تظل المياه راكدة دون حراك، فيأتي من يرمي بحبة حصى صغيرة، لترى المياه تهتز اهتزازا.

فالثورة شكل من أشكال الرفض. إنها قلب للموازين، وهيجان على الثبات والاستقرار؛ لأن هنالك قاعدة في علم الأحياء تقول: إن الاستقرار يساوي الموت. لذلك فإن الذي يشعل الثورة فهو عدو للاستقرار والسكون، بل إن ديدنه هو الحركة الدائبة التي لا يقر لها قرار.

يخبرنا التاريخ عن شخصيات كبرى، مثلت دورا بارزا في بناء أحداثه الكبرى وتغييرها. وأقرب مثال نستحضره هنا هو النبي محمد، عليه الصلاة والسلام. حيث عُدَّ ثائرا عربيا أتى بمنهاج جديد للحياة. ثم أقام ثورة على التقاليد والنظم الاجتماعية والدينية السائدة في المجتمع القريشي آنذاك. لذلك كانت ثورته نارا مشتعلة، ورد فعل عنيف على الكائن ودعوة منشودة إلى الممكن.

غالبا ما تكون الثورة في بدايتها نارا خافتة، لكن سرعان ما تغدو متأججة تأتي على الأخضر واليابس. كما أنها تكون خجولة ومرفوضة في البداية، غير أنها تصبح مألوفة لدى الجميع الذي رفضها في مهدها، لتتولد عنها ثورة أخرى، وهذا هو ديدن الحياة في كل زمان ومكان.

لكل فرعون موسى، ولكل قرية سفيان يسعى لقلب الموازين فيها. ثم يحاول تحريك المياه الراكدة. حيث تراه يهدم ويقوض، ثم يبني ويشيد. وهذا هو نهج الثوار الحقيقيين في التاريخ.

لقد قضى سفيان سنوات من الاغتراب خارج القرية، وخبر أمورا عديدة لم يكن ليعرفها لو بقي ماكثا بين سكانها. لذا ارتأى أن يكون نبيا مرسلا إلى أهل قريته، لكنه ليس ثائرا سياسيا، وإنما ثائر على الثقافة والتقاليد.

استقبله أهله بحفاوة وفخر كبيرين والفرحة تغمر قلوبهم. لأنه قضى وقتا طويلا كان فيه بعيدا عنهم، مما عمق الشوق في نفوسهم، إلى أن أتت لحظة الإياب.

لقد عاد سفيان وهو ثائر على المجتمع القروي، وقد أفصح عن ثورته بعدما قضى شهرين متتالين بين ظهراني أهله في القرية. فظل يسرد للشباب والأصدقاء كلّ الأحداث والوقائع التي عايشها في هذه السنوات التي قضاها بعيدا عن القرية. فضلا عن الآلام التي أحسها في الغربة، بداية بما اصطدم به من اختلافات بين قيم القرية والمدينة، مما نمّى في نفسه فكرة التقدم الثقافي والاجتماعي الذي تنعم فيه المدن، وصولا إلى نظرته عن مكانة المرأة في المدينة، والأدوار الفعالة التي أصبحت بوساطتها تضاهي الرجل أحيانا، وتنافسه في وظائفه الاجتماعية والسياسية أحيانا أخرى.

إن لكل مجتمع أعرافَه وتقاليدَه الاجتماعيةَ الخاصةَ به، كما أن له قيما نشأت فيه لهذا يدافع عنها.

يقول سفيان متحدثا عن القرية:

- " لقد كانت للقرية طقوس متفردة في الزواج والطلاق والتعايش الاجتماعي. فأهل القرية نشأوا على هاته الثوابت الاجتماعية؛ لهذا ترى العرس يدوم خمسة عشر يوما، حيث يجتمع الأهالي والأقارب من كل صوب وحدب. فيكون اليوم الأول من العرس مخصصا للذبائح. وفي ليلته، تتم دعوة أهل القرية للعشاء، صغارا وكبارا، ويقضون الليلة في أجواء بهيجة مفعمة بالسرور والبساطة، ويتخللها جو لطيف من الطرب الفلكلوري. وهو عبارة عن تراث شفهي خاص بالقرية، يطلق عليه اسم الركبة. إنه أبيات شعرية وأهازيج يرددها الأشخاص الذين يشكلون صفين متناظرين، لكل صف ستة أشخاص، يصفقون بأيديهم ويرقصون بأكتافهم. أما الآخرون فإنهم يكتفون بالمشاهدة والهزل من قريب.

أما اليوم الثاني. فإنه يخصص لاستقبال الضيوف الآتين من القرى المجاورة للقرية. يتم استقبالهم والعناية بهم؛ حيث الأطباق ممتلئة بلحم البقر الفتي، والبرقوق الأسود واللوز الطازج. في حين أن الخبز مختلف كثيرا عن خبز المدينة، بحيث يعد ويطهى في فرن قروي يبنى بالطين، وفي وسطه توجد حصى صغيرة، يوضع فوقها العجين الدائري، ثم تشعل النار جانبه، مما ينتج عنه ارتفاع درجة حرارة الحصى الصغيرة، ومن ثم يكون الخبز ذا شكل غريب حيث ثقوب صغيرة في وسطه، نتجت عن الحصى. فهذا الخبز يعطي جمالية خاصة بالقرى. لكنه، وبالإضافة إلى جماليته، ذو لذة لا تطاق، فضلا عن مزاياه العديدة؛ إذ يؤدي إلى تلبية رغبة الجائع. كما أنه لا يتطلب الكثير من المرق؛ لأنه لا يمتص كثيرا، لذلك يعتمد السكان عليه في المناسبات الكبرى.

وفي ليلة اليوم الثاني. تأتي العروس من بيت والدها، حيث النساء يحطن بها من كل جهة، والزغاريد تملأ المكان. إنه احتفال بها وهي لا تزال

بكرا، وهذه هي لحظة العمر التي تنتظرها كل فتاة بفارغ الصبر. ففي بيت والدها، تكبر وتعيش طفولتها، لكن نظرة أهلها إليها لا تعدو كونها نظرة عابرة. إنها في مقام الضيف، والضيف مهما طال مقامه، فإنه مقدر له الرحيل يوما ما ".

لقد ظل سفيان على هذه الحال وقتا طويلا؛ يقارن بين نظرة سكان المدن إلى العرس. وفي هذه المقارنة، ينتقد بعض الممارسات التي يقوم بها أهل القرية في العرس، منها نظرتهم إلى الفتاة المتزوجة، وكذا الدلالات الاجتماعية والثقافية التي يُضفُونها على هذه الممارسات. وعلى سبيل المثال لا الحصر، يقارن بين نظرة كل من سكاني المدن والقرى لليلة البناء قائلا:

- " إن ليلة البناء تختلف من القرى إلى المدن. ففي المدينة يكتفي العريس بأخذ عروسه إلى بيت مستقل له، حيث لا يوجد أهل ولا أقارب. ثم يقضي ليلته دون أن يخاف لومة لائم. لكن الأمر يختلف في القرية، فالعريس لا يعيش في بيت مستقل، إنما يعيش رفقة أهله. لهذا نجد أن ثمة قانونا يحكم هذه الليلة التي كثيرا ما تم تفريغها من حمولتها الاجتماعية، وشحنها بأفكار وتقاليد معقدة. إذ ترى العريس في هذه الليلة، كأنه محارب يجمع العدة والعتاد ليدخل حربا ضارية، إما قتيل وإما مقتول. فمن كثرة الأقاويل التي قيلت عنها، صارت الهم الأكبر لكل شاب مقبل على الزواج في القرية.

وما يزيد الطين بلة، هو كونها اللحظة الحاسمة التي تظهر فيها الرجولة والفحولة، لذلك ترى أهل العريسين حريصين على الأمر كل الحرص. فبعدما يدخلان بيتهما، يأتي أفراد من الأهالي ينتظرون أمام الباب، ليخرج

عليهم المحارب وهو يحمل في يده ثوبا مليئا بالدم. إنه زمن الفحولة في زمن غابت فيه قيم الرجولة في الماديات. ثم ترتفع الزغاريد التي تعد إشعارا وحكما حاسما على فحولة العريس المحارب. فهم لا يفكرون في الاطمئنان على العروس، وإنما يهتمون بفض بكارتها فقط. وهذا الأمر يعد حيفا وظلما للمرأة المغلوب على أمرها في المجتمع القروي الذكوري بامتياز ".

لاحظ سفيان أن المرأة في المدينة تتعرض لكل أشكال العنف والحيف. لكن ما يعتقد به سكان القرى ويرونه تقاليد وأعرافا راسخة، يعد من منظوره، جريمة في ليلة يتيمة كئيبة. لهذا يصب جامّ غضبه على هذه التقاليد، ويدعو إلى تغيير هذه النظرة المادية للمرأة في المجتمع القروي.

يقول سفيان:

- " إن المرأة قيمة إنسانية لا تقل عن قيمة الحب الكوني، ولا يمكن لهذا الأخير أن ينمو في غياب قلب أنثى تحبل به. فلئن نحن عاملنا المرأة بحب، ونظرنا إليها، باعتبارها غاية في ذاتها، نظرةً ساميةً تترفع عن كل شهوات الجسد المادية، فإنها ستلد لنا جيلا يحمل مشعل الحب الكوني.

لم تكن العلاقةُ بين الزوجين علاقةَ حب قبل زواجهما؛ لأن الأمهات هن اللائي يتجشمن مسؤولية اختيار الزوجات لأبنائهن. حتى إن الابن لا يكاد يتعرف على زوجته إلا في ليلة البناء. إنه لقاء بين الغرباء، وكلا الشخصين يعيشان غربة داخل أربعة جدران، ويشكلان صورة ذهنية عن بعضهما قبيل اللقاء. لذلك، لم يكن لهما الوقت ليتحدثا عن الحب قبل الزواج، بل إن كلا منهما ينتظر لحظة لقاء الآخر، الغريب عن الذات، ثم

تأتي اللحظة التي ينصهران فيها معا، فتحبل العروس بحب إنساني كوني تجاه الآخر الذي أضحى جزءا لا يتجزأ عن الذات.

إن الغربة تتبدد ساعة اللقاء، ثم تنصهر الذوات لتصير كلا مكتملا، مستعدا لعيش السراء والضراء، وله نفس طويل للاستمرار إلى أن يأتي المنون. لهذا نجد أن نسبة الطلاق قليلة في القرى؛ لأن الزوج لا ينظر إلى أنثى غير زوجته، وليس له حبّ فائض ليقدمه لغيرها، إنها الوحيدة التي تستأهل كل ما تجود به العاطفة الجياشة.

كانت الفتاة لا ترى زوجها قبل الزواج، وإنما تظل تنتظر ليلة العرس حتى تلتقي به. وقد ثار سفيان على هذه العادة لما فيها من عنف تجاه الفتاة، فطفق يدعو إلى الثورة الثقافية قائلا:

- " إننا في حاجة إلى لقاء ودّ وسلام، لا إلى حرب ليلية لا يعرف فيها المحاربُ عدوَّه معرفةً كبيرة، وإنما يحارب للظفر بالغنيمة فحسب.

إننا ملزمون بالثورة على العلاقات الاجتماعية السائدة بين الزوجين في القرى. وعلينا أن نلتقي بعدونا قبل الحرب، حتى تكون وطأتها أخف علينا وعليه، ويكون مستعدا لدخولها لا قاتلا ولا مقتولا. فنحن لا نريد علاقات ماجنة، بل إننا نسعى نحو الرقي بالأفكار حول العلاقة بين الزوجين، كما أن من حق كليهما أن يختار الآخر.

إننا لا نسعى إلى تعميق الجرح المندمل الذي تتألم بوساطته المرأة في كل زمان ومكان، بل نهدف إلى حسن معاملتها باعتبارها حبا إنسانيا كونيا، لا مجرد أرض يباب تحتاج إلى من يرمّمها، ولا بيداء قاحلة تتشوق إلى مطر غزير. فهي إنسان لم يقترف خطيئة بشرية، وليست ضحية شيطان

رجيم. فالمرأة ليست ناقصة عقل ودين حتى تظل مهجورة بين أربعة جدران، وإنما يجب أن نشعرها بقيمتها التي هي جديرة بها.

إننا مرضى بتقاليد مجتمعنا القروي التي تكبل المرأة وتسجنها، وتنظر إليها نظرة الكائن الذي ينبغي أن يكدّ من أجل إرضاء الذكر جنسا وعملا. بل يحق لها أن تذهب إلى المدرسة كأيها الناس، وتدرس حتى تصل إلى مبتغاها.

إن المرأة ليست سلعة تباع وتشترى، بحيث نجد الآباء ينظرون إلى بناتهم كأنهم يحملون عبئا ثقيلا، ينتظرون بيعهن في ما يسمى الزواج.

صحيح أن الزواج خير سبيل للفتاة، لكنه ليس الغاية الوحيدة التي يقف عندها المرء. فالتعلم غاية بالنسبة للفتاة، والتحرر من أغلال التقاليد والأعراف المتزمتة غايتها أيضا. لهذا فإن اختيار شريك العمر حق من حقوق المرأة القروية؛ لأنها جديرة بالحب الكوني الذي تختاره بمحض إرادتها، بعيدا عن كل أشكال الإكراه الاجتماعي العرفي.

إننا نسعى إلى تعرية عقل المرأة وفكرها في القرى، لا أن نعري جسدها. نريد تكسير أغلالها لتجد ذاتها كإنسان له مشاعر وعواطف، كما له اختيارات وآراء خاصة به وحده. فلنحرر العقول بالوعي أولا. ثم نحرر المرأة ليكتمل نصف المجتمع، ونجد الأرض الخصبة لنزرع بذور الحب الإنساني الكوني ".

لقد كان سفيان يعرف أن الثورة تحتاج إلى وعي، لذلك يرى أن السلاح الفعال الذي يكسر هذه الأغلال الاجتماعية التي تكبل المرأة هو الوعي.

فهو يتوخى تحرير المرأة وتثقيفها، وبالتالي مساعدتها على مغادرة سجنها الذي تظل أسيرة فيه إلى أن يأتي الله بأمره.

حين ينتهي العرس، تنتهي حياة العزوبة عند الطرفين معا. فتصبح الفتاة امرأة بعدما فقدت بكارتها التي تعد شرفها وشرف أهلها، لتحكم على نفسها بالإقامة الجبرية في البيت، لا تخرج إلا نادرا. حتى وإن حدث وخرجت، فإنها ملزمة بأن تحنط نفسها في لحاف أسود لا يُظهر من زينتها شيئا. ولعل هذا ما يبعث على الاستغراب في نفس الشاب الثائر حيث يقول:

- " غريبة هي حياة الفتيات في القرية. فهن يمكثن في بيوت آبائهن لا يخرجن إلا نادرا. ولما يتزوجن يقعن في الأمر نفسه حيث يغادرن سجنا ليدخلن آخر. ففي البيت، يجدن سلطة الآباء، وبعد الزواج يقعن تحت وطأة سلطتين: سلطة الزوج وأهله، وسلطة المجتمع وأعرافه وتقاليده. ومن ثم فإن التحرر ينبع من الوعي. لذا فإننا محتاجون إلى الثورة على قلة منسوب الوعي داخل المجتمع القروي. وإذا لم نعمل على تنمية الوعي من الداخل، فإن هنالك وعيا يتسرب عبر وسائل الإعلام السمعية-البصرية الدخيلة ممثلة في التلفاز؛ لأن المرأة لا تصبر على سجنها بين الجدران، لذلك تجد خير أنيس في التلفاز التي لا تبرح من أمامه طوال اليوم ".

هكذا عمل الثائر سفيان، بسلاحه الذي سار به، بين التقاليد الاجتماعية والثقافية، يهدم ويقوض تارة، ثم يدعو إلى محاربة الأمية الغاشمة تارة أخرى. فهو يعرف جيدا، المكانة التي تشغلها المرأة في المدينة، وذلك بفعل تسلحها بالوعي الذي خول لها القيام بوظائفها، والتحرر من قبضة المجتمع وتقاليده. في حين أن وضع المرأة القروية يختلف عن نظيرتها.

إن المرأة المتحضرة تتمتع بقدر لا بأس به من الحرية، بحيث تستطيع القيام بمنافسة الرجل في وظائفه الاجتماعية، وفي أدواره السياسية أيضا، إلا أنها لم تسلم من سلبيات هذا التحرر؛ لأن المدينة طغت عليها المادة، وشيء طبيعي أن ينعكس هذا الأمر على المرأة.

قضى سفيان مدة طويلة خارج القرية، وهذا كفيل بأن يجعله يعرف وضع المرأة في المدينة. فهي بين المطرقة والسندان؛ لأنها تحررت من التقاليد الاجتماعية والثقافية، فوجدت نفسها ضحية للنظرة المادية التي اكتسحت المدينة. لذا كان يرى أن الإعلام الدخيل لا يعدو كونه حجر عثرة في طريق تحرير المرأة القروية. ومن ثم يتوخى تحريرها من هذا العدو اللدود. وما من سبيل لتحقيق هذه الغاية إلا بسلاح الوعي، لذلك يقول:

- " إن المرأة في الجنوب الشرقي تتبدد يوما بعد يوم. لقد أصبحت ضحية سهلة للإعلام الذي ما أنزل الله به من سلطان. وإذا كانت بداية الثورة أزمة بعد أزمة، فإن أزمة الوعي التي تسربها وسائل الإعلام إلى ذهن المرأة هنالك، تؤدي إلى كبت المرأة للقيم المادية العَرَضية في لاوعيها. ولئن طال الأمر على هذه الشاكلة، فإنه ستأتي لحظة الانفجار والثورة التي ستكون ثورة تفسخ واندحار قيم البداوة الأخلاقية والإنسانية، بسبب قيم الإعلام الدخيلة التي تدعي الكونية والشمولية. وهكذا، لا يمكن أن نحارب هذه الآفات إلا بتثقيف المرأة، وإتاحة فرصة التعلم ومحاربة الجهل والأمية لها، وتنمية الوعي الإيجابي الذي يؤدي إلى صلاح الأرض والنسل ".

إن الإعلام الدخيل له غاية كبرى، ونوايا سيئة مقيتة. وهي إعادة هيكلة عقل المرأة في الدول النامية الهامشية؛ لأن قصفَ المرأة هو هدمٌ وردمٌ

للمجتمع، وإذا فسدت المرأة فسد المجتمع بنظمه الثقافية وقيمه الإنسانية. لذا، فإن محاربة الجهل والأمية في الهوامش هي محاربة للتقليد الأعمى، ودعوة للتخلي عن قيم الآخر المادية الفاسدة، والتحلي بما صلح منها وما يهم الإنسان باعتباره إنسانا، يحترم الآخر ويؤمن بثقافة الاختلاف في الرأي والمعتقد، إلى جانب التحلي بقيم البداوة العريقة التي تلائم وتساير العصر الحالي بدون إفراط ولا تفريط، ثم التجلي القيمي الإنساني الكوني، ولا يتم هذا إلا بتحرير المرأة من الأمية والتقاليد التي تكبلها تكبيلا.

****

السيرة الذاتية للكاتب

محمد الورداشي

كاتب وباحث مغربي

مزداد بتاريخ: 9 مارس 1995

حاصل على شهادة البكالوريا في العلوم الإنسانية سنة 2014.

- حاصل على شهادة الدبلوم الجامعي من كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة ابن زهر سنة 2017.

- حاصل على شهادة الإجازة في اللسانيات من الكلية نفسها سنة 2017.

إصداراته:

- مجموعة قصصية معنونة ب "حينما يتنكر الوطن لبنيه" صدرت سنة 2019.

- له مجموعة من القراءات في مؤلفات أدبية إبداعية، وفكرية وثقافية، نشرت في جرائد ورقية وإلكترونية في المغرب والعالم العربي.

وحاليا يزاول مهنة التدريس في السلك الثانوي.

****

فهرس الكتاب	
الإهداء	4
مقدمة	5
دموع السماء	9
الثائر عمر	22
دمعة المغترب	34
حب عابر	44
دعوة إلى التعايش	55
فاظفر بذات الدين تربت يداك	63
وجع التراب	73
أسطورة الولي الصالح	81
الروح الأبية	101
نحو ثورة جديدة	107
السيرة الذاتية للكاتب	117
محتويات الكتاب	119

حقوق الطبع والنشر لهذا المصنف محفوظة للمؤلف، ولا يجوز بأي صورة إعادة النشر الكلي أو الجزئي، أو نسخه أو تصويره أو ترجمته أو الاقتباس منه، أو تحويله رقمياً وإتاحته عبر شبكة الإنترنت، إلا بإذن كتابي مسبق من المؤلف أو الناشر.

الطبعة الأولى
1441 هـ 2020 م

دار ديوان العرب للنشر والتوزيع
مصر - بورسعيد

جوال: 00201211132879
E-mail: mohamedhamdy217217@gmail.com